9me Année No. 393

Lundi - 13 - 1 - 1941

بدل الاشتراك عن سنة
مص
٦٠ فى مصر والسودان
٨٠ فى الأقطار العربية
١٠٠ فى سائر الممالك الأخرى
١٢٠ فى العراق بالبريد السريع
١ ثمن العدد الواحد
الاعلانات
يتفق عليها مع الإدارة

الرسالة

مجلة أسبوعية للأدب والعلوم والفنون

ARRISSALAH
Revue Hebdomadaire Littéraire
Scientifique et Artistique

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
أحمد حسن الزيات

الإدارة
دار الرسالة بشارع السلطان حسين
رقم ٨١ — عابدين — القاهرة
تليفون رقم ٤٢٣٩٠

العـــدد ٣٩٣ « القاهرة فى يوم الاثنين ١٥ ذو الحجة سنة ١٣٥٩ — الموافق ١٣ يناير سنة ١٩٤١ » السنة التاسعة

الفهـــــرس

الضحيـــة

للأستاذ عباس محمود العقاد

كلمة لها تاريخ ، ولتاريخها اتصال بالعادات والعقائد وأطوار اللغات والألفاظ ، ولا سيما فى انتقالها من المحسوسات إلى المجردات ، ومن البساطة إلى التركيب

كم من الذين يتحدثون بالتضحية فى معرض الحب أو الحماسة الوطنية أو المعانى الروحيـة يذكرون أن أصلها الأول أكلة فى الضحى ؟

فالتغدية تقديم الطعام فى وقت الغـداة ، والتمشية تقديم الطعام فى وقت العشاء ، والتسحير تقديم الطعام فى وقت السحر ، والتضحية بالشاة أن تذبح الشاة أو تؤكل ضحى على هذا السياق

وهذا هو المعنى الذى صعد به الإسلام من أكلة إلى قربان إلى فداء ، إلى هذه المعانى التى نرددها اليوم كل صباح ومساء

وتاريخ الكلمات فى الانتقال من المادية إلى الروحية هو تاريخ العقل الإنسانى فى فهم الحقائق والنظر إلى الحياة

فما العقل ؟ وما الكتابة ؟ وما الفن ؟ وما الجمال ؟ وما العلم ؟ وما الرسم والتمثيل ؟ وما الجوهر واللباب ؟

كلها لها أصول لا تزال تلمس باليد وتدرك بالحس ، وكلها قد صعدت من هذه الأصول المحسوسة إلى تجريد لا تدركه العقول إلا بعد شفوف وإمعان

وإذا كانت متابعة الكلمات في اللغة الواحدة متعة للفكر ومعواناً على فهم الأصول والحقائق ، فأمتع من ذلك وأعون على الفهم أن تضاهى بين الكلمات في لغات مختلفات . فإن لهذه المضاهاة فائدة صحيحة لا يستغنى عنها باحث في علم ولا مستقص لتاريخ ولا متعمق في دين

* * *

انتقلت التضحية من أكلة في الضحى إلى أسمى معانى المفاداة التي يهون فيها بذل الأرواح

ولكن الفداء نفسه قد انتقل في معانيه مثل هذا الانتقال بل أبعد من هذا الانتقال

فقد كان الفداء في بدايته الأولى أشبه شيء « بالزيارة » التي يحملها اليوم أهل الميت إلى قبره من فاكهة يفرقونها ، أو ريحان ينثرونه ، أو ذبائح ينحرونها ويفرقونها على المساكين في جدة الوفاة

وكان اعتقاد الهمج الأولين أن الأموات يطلبون الغذاء كما يطلبه الأحياء ، ومن هؤلاء الأموات أقوياء بطاشون ينتقمون أشد النقمة ممن يحرمهم نصيبهم في الطعام والشراب ، ومنهم أعزاء محبوبون يشق على أحبابهم أن يتخيلوهم بعد الموت جياعاً عطاشى محرومين هائمين يبتغون الري والشبع ولا يرتوون ولا يشبعون ، ومنهم شفعاء مقبولون يأخذون ويعطون : يأخذون « الزيارة » ويعطون بديلاً منها ما في ضمير الزائرين والمتشفعين

وترقى معنى الفداء الذي نشأ هذه النشأة قليلاً قليلاً حتى هذبته الأديان وصقلته الحضارة ، فاقترب من معنى الإحسان وابتعد من معنى الخوف على الأحياء وإشباع من في القبور

فالذين يتصدقون بالطعام اليوم لا يقصدون به أن يأكله الموتى ولا أن يدفعوا به غضبهم ونقمتهم إذا جاعوا وظمئوا وصنعوا بالشاربين الطاعمين ما يصنع الجياع الظماء

ولكنهم يقصدون أن يحسن الله إلى موتاهم كما يحسنون هم إلى المعوزين ، ويودون أن يبلغوا أولئك الموتى أنهم لا يزالون من الدرة عندهم بحيث كانوا في أيام الحياة ، فهم يبذلون لهم ولا يضنون عليهم . ويتعمد بعض الزائرين أن يختاروا من صنوف الطعام ما كان شهياً مفضلاً عند الميت في أيام حياته ، تعزياً بالفكرة لا تصديقاً بحاجة الميت إلى غذاء الأحياء

وبعض الأحياء يعكس الأمر فيحرم على نفسه الصنوف التي كانت شهية مفضلة عند موتاه ، كأنما يأبى أن يستمتع بما حرموه ويريد أن يساويهم في الحرمان ، وكلاهما شعبة من معنى واحد هو الوفاء والادكار ، والضن على النفس في سبيل من ضنت عليهم الحياة باللذات والطيبات

* * *

ذلك أصل من أصول الفداء ، وهو رعاية الأموات

وله أصل آخر أعرق من هذا في الهمجية وأبعد منه عن تهذيب الدين والحضارة

وذلك الأصل يقابل الجزية التي يفرضها السيد على العبد ، والأدب الذي يستوجبه الغالب من المغلوب

فمن الأدب الذي كان يستوجبه الفاتح المنتصر من المنكسرين أمامه أن تظهر عليهم ذلة الانكسار والتسليم ، وأن يسومهم كل ما يريد ولو لم تكن له فائدة فيه ، وأن يسلبهم فيعطوه صاغرين ، ويقمعهم فيمتثلوا خاشعين ، وأن يطالبهم بالأتاوات والرهائن من الرجال والنساء والأنعام ، ومن الأزواد والخيرات والحطام

وكان المهزومون يستنقذون أنفسهم بتسليم فريق منهم للقتل ، ويستنقذون أموالهم بإهداء نفيسها ومختارها واستبقاء ما يزهد فيه الفاتح أو لا يهتدي إليه

فلما عبد الهمج أربابهم وأوثانهم واعتقدوا فيهم القوة والغلب جعلوا لهم حقاً في الضحايا والهدايا كحق المنتصر على المهزومين ، وافتن الكهان في تنظيم هذه الجزية « المقدسة » التي تؤول إليهم في الحقيقة سراً وجهرة في كثير من الأحيان ؛ فانتظمت من ثم شعائر التضحية والفداء ؛ وبالغ بعضها في القسوة حتى تقاضت للأرباب والأوثان بواكير كل شيء من حيوان ونبات ، وفي طليعتها الأبناء وهم رضعاء أو دارجون

وقصة إبراهيم هي حد فاصل في نظرة الأديان إلى الفداء كما كان قديماً وكما هو مفروض الآن . وفي ذلك يقول القرآن الكريم : « فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني

أذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ، ستجدنى إن شاء الله من الصابرين . فلما أسلما وتلّه للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدّقتَ الرؤيا ، إنا كذلك نجزى المحسنين ، إن هذا لهو البلاء المبين ، وفديناه بذبح عظيم »

وهكذا ترقى لفظ الفداء ومعناه . فأما لفظه فحسبك انتقاله من الضحية التي هي شاة تذبح في الضحى إلى الضحية التي هي قربان وإحسان

وأما معناه فالانتقال فيه أعظم ، لأنه انتقال من أكلة إلى ذروة الأخلاق العليا . إذ كانت خلاصة كل خلق وكل عقيدة وكل تكليف أن يجود الإنسان بما يعز عليه ، وأن يفضل بعض الحرمان على بعض المتعة ، وأن يعصى داعى الغريزة إذا حسنت له كل سلامة وكل كسب ، وبغضت إليه كل إقدام وكل إعطاء

وهنا يفوق الإنسان الغريزة فيرتفع من حضيض البهيمية إلى شرف الآدمية

وحيثما وجد دين وخلق فهنالك عصيان لغريزة من الغرائز لا مراء ، فإن الدين والأدب لازمان لهذا ونافعان لهذا ، لا لأنهما مطاوعان للغريزة في كل ما تمليه وترتضيه

الغريزة تقول لك إن اللذة خير من الألم ، وأن الحياة خير من الموت ، وأن الأثرة خير من الإيثار ، وأن حبس المال خير من بذله ، وأن الراحة خير من المشقة

ولو كان هذا هو الخير حقاً لما ظهرت الأديان والأخلاق ، ولكانت الغريزة وحدها كافية كل الكفاية وفوق الكفاية ، ولأصاب الإنسان الخير كما يصيبه الحيوان بغير عناء

ولكن الخير الإنساني شيء نفيس ، والشيء النفيس له ثمن عزيز ، وما الثمن العزيز إلا الجود بما نضن به ونغليه

ولهذا كانت الضحية عنوان الدين كله وقوام الخلق كله ، فحيث لا ضحية فلا دين ولا خلق ، بل غريزة حيوانية يتساوى فيها الناطق والأعجم ، ويتلاقى فيها المريد وغير المريد

وفرائض الأديان تكليف

والتكليف لا يخلو من الكلفة بحال ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها معناها أن تعمل ما تطيق وليس معناها ترك العمل لأنك تطيق تركه ويسعك أن تتناساه

وفي الشعر العربي بيتان لشاعرين حكيمين هما خلاصة الأدب وصفوة الخلق ومعيار التفاضل بين الفضائل ، وهما بيت أبي الطيب إذ يقول :

لولا المشقة ساد الناس كلهمُ   الجود يفقر والإقدام قتال

وبيت أبي تمام إذ يقول :

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها   تنال إلا على جسر من التعب

ومعنى البيتين البليغين البالغين في الحكمة كلمة واحدة وهي : « التضحية » أو « الفداء »

فقولك إن الراحة خير من التعب ، وأن الأخذ خير من العطاء ، وأن السلامة خير من الإقدام ، قول مفهوم قبل أن يكون خلق وقبل أن يكون دين

فلما وجب على الإنسان أن يفهم أن بعض العطاء خير من بعض الأخذ ، وأن بعض الراحة شر من بعض التعب ، وأن بعض الموت أكرم من بعض الحياة ، وأنه إنسان مكلف وليس بسائمة مهملة ، كان له خلق ، وكان له دين ، وكانت الضحية التي يرمز إليها المسلم في عيده الكبير هي قوام ذلك الخلق وأساس ذلك الدين .

عباس محمود العقاد

الرسالة في سنتها التاسعة

على الرغم من استحكام أزمة الورق ومواد الطباعة وارتفاع أثمانها الى عشرة أضعاف ، ستسير الرسالة على نظام العام السابق من التخفيض والتقسيط والاهداء مع المشتركين القدماء . أما المشتركون الجدد فيؤدون الاشتراك كاملا مقسطاً أو غير مقسط . ومن المقرر أن المشتركين القدماء لن يتمتعوا بمزايا الاشتراك المخفض الا اذا جددوا اشتراكهم من نصف ديسمبر الى آخر يناير سنة ١٩٤١ ، ولن يمد الأجل بعد ذلك .

مسابقة الجامعة المصرية لطلبة السنة التوجيهية

مطالعات في الكتب والحياة

لعباس العقاد

للدكتور زكي مبارك

— ٩ —

موضوع الدرس في هذه المرة هو كتاب المطالعات في الأدب والحياة للأستاذ عباس محمود العقاد عضو المجمع اللغوي ، وهو كتاب يقع في أربع وعشرين وثلثمائة صفحة بالقطع المتوسط ، وقد نشرته المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة ، وثمنه خمسة عشر قرشاً . والنسخة التي أنقدها هي الطبعة الثانية ، ولهذه الإشارة معنًى ، فهي تشهد بأن هذا الكتاب نال بعض ما يستحق من النباهة والذيوع .

شخصية المؤلف

العقاد أديب منوَّع المواهب : فهو كاتب وشاعر وناقد وخطيب ، على تفاوت في هذه الأوصاف لا يوجبه التقصير أو نقص الأدوات ، وإنما يوجبه التفات هذا الأديب إلى بعض الفنون أكثر من التفاته إلى البعض ، فهو كاتباً أقوى منه شاعراً ، لأن ذهنه ارتاض على التعبير بالترسل ، أكثر مما ارتاض على التعبير بالقريض

ودرس اليوم لا يتصل بمواهبه الشعرية والخطابية ، وإنما يتصل بمواهبه النثرية والنقدية ، فمن هو بين الكتاب والنقاد ؟

للعقاد في الكتابة والنقد شخصيتان مختلفتان كل الاختلاف :

فالعقاد الكاتب السياسي يَرمِي ويُرمَى ، ويَظلِم ويظلَم ، في كل وقت ، فهو من أبناء السماء عند قوم ، ومن أبناء الأرض عند آخرين . أما العقاد الكاتب الأدبيّ فهو من الطبقة الأولى بشهادة الجميع

والعقاد الناقد لا ينحرف عن القصد إلا في حال واحد ، حال الحكم على من يعاديه من المعاصرين ، أما حكمه على المفكرين الذين بَعُد عهدهم في التاريخ فهو في غاية من العدل والسداد ، وقد يصل به الرفق إلى المبالغة في إظهار المحاسن وإخفاء العيوب

وانحراف العقاد في كتاباته السياسية والنقدية يشهد بأنه سليم الشخصية ، وللسلامة هنا مدلولٌ خاصٌ ، هو اكتمال الحيوية والإحساس ، فالعقاد يصادق بعنف ، ويعادي بعنف ، فأصدقاؤه ملائكة ولو كانوا شياطين ، وأعداؤه أبالسة ولو كانوا ملائكة مقربين . وهو مستعد لخوض النار مع أصدقائه إن أوجب الوفاء أن يشاطرهم عذاب الحريق ، أما أعداؤه فهو لهم بلاء وعناء ، وهو يلقاهم في السر والعلانية بأقبح ما يكرهون

وقد شاع وذاع أن العقاد رجلٌ حقود ، وهو كذلك ، فالحقد من كبريات الفضائل في بعض الأحايين ، وقد يُجزَى عليه خير الجزاء يوم يقوم الحساب ، فالله أحكم وأعدل من أن يعاقبنا على تأديب من يحاولون الغض من أقدارنا الأدبية وهم جهلاء !

ما نظرت في شراسة العقاد مع خصومه إلا قلت : هذا رجل ، والرجال قليل

وما نظرت في سماحة العقاد مع أصدقائه إلا راعني ما في طبعه من بشاشة وأريحية ، فهو لهم عماد في جميع الظروف ، وهم من أخوته الوفيّة في أنس أنيس

والواقع أن الرجولة لها تكاليف ، وهي تجشّمنا مصاعب لا تخطر لأحد من الضعفاء في بال ، فالرجل الحق هو الذي يقدر على الضر كما يقدر على النفع ، أما المخلوقات « الرقيقة » التي تُحاكمنا إلى شريعة « الأخلاق » في كل ما نكتبُ وفي كل ما نقول فهي شخوصٌ بوائد خلّفها التاريخ ، كما يخلّف النهر العارم أوشاب العشب المعطوب

الرجولة الحق تَفرض الشجاعة الحق ، ولا تتم الشجاعة لرجل إلا إذا جاز أن تصل به أحياناً إلى حد التهور والجنون ، لأن ضبط النفس لا يتيسر في كل وقت ، كما يتيسر لبعض من يفهمون أن الرجل « الصالح » للانتفاع بالمجتمع هو المخلوق « المصقول » !

وما قيمة القلم إن لم يَخِز بسنانه عيون المتمالين والمتماقلين من حين إلى حين ؟

وما حظ الأمة في أن يتخلق جميع أبنائها باللُّطف والظُّرف[1] ؟

أعاذنا الله من زيغ البصائر في هذا الزمن المخبول !

(١) الجمهور في مصر ينطق الظرف بضم الظاء ، وهذا النطق صحيح إذا راعينا الاتباع ، لأن كلمة الظرف تقرن كثيراً إلى كلمة اللطف

مطالعات العقاد فى الكتب والحياة

العقاد فى هذا الكتاب ناقد وكاتب ، وقد خلص من الشوائب التى تعرض له فى بعض كتاباته النقدية أو السياسية ، خلص خلوصاً مُبيناً ، فهو لا يلتفت إلى ما يحيط به من أحقاد الساسة أو ضغائن الأدباء ، وإنما يخاطب العقل وجهاً إلى وجه ، ويسمو بنفسه إلى طلب المنزلة بين أهل الخلود

والعقاد من هذه الناحية أقدر من طه حسين على ضبط النفس . نجد العقاد يقول فى هامش بعض الفصول « من مقال نشر فى البلاغ » فما المراد من عبارة « من مقال » ؟

كان المقال فى الأصل يحوى فكرة باقية أضيف إليها التحامل على أحد المعاصرين ، وهو حين يجعل مثل هذا المقال فصلاً من كتاب يحذف الجزء المشوب بالتحامل ويكتفى بالجزء الذى يصور فكرة باقية ، ومن أمثلة ذلك ما صنع العقاد فى كتاب « الفصول » فنى ذلك الكتاب فصل عن « التأنق » ، وهذا الفصل أنشأه العقاد للسخرية من سعادة الأستاذ « أحمد لطفى السيد باشا » ، ثم رأى أن يحذف تلك السخرية من جانبها الخاص ، وأن يكتفى بجانبها الأصيل ، وهو احتقار التأنق فى تناول عظائم الشؤون

أما الدكتور طه حسين بك فقد أساء إلى نفسه وإلى تاريخه حين عجز عن تهذيب مقاله عن « عنترة بن شداد » فى الجزء الأول من الطبعة الثانية لكتاب « حديث الأربعاء » ففى ذلك المقال تعريض قبيح بمعالى الأستاذ حلمى عيسى باشا ، وسيسأل الناس فى المستقبل عن الموجب لذلك التعريض القبيح ، لأنه لا يصدر عن رجل ينتسى إلى الأستاذية فى الأدب والأخلاق

وما أعيبه على الدكتور طه أعيبه على نفسى ، فقد أثبتُّ فى الطبعة الثانية من كتاب البدائع فصلاً دميماً عن « طه حسين بين البِنّى والعقوق » ، وهو فصل عانيتُ من شؤمه ضروباً من المقابيل ، وعرّضنى لمكاره ومتاعب لم أدفع شرها إلا بنضال عنيف

ومن أعجب العجب أن يكون عباس العقاد أقدر على ضبط النفس من زكى مبارك وطه حسين !

الشجاعة الأدبية

يمتاز كتاب المطالعات بالشجاعة الأدبية ، فما المراد من ذلك ؟ أيكون المراد أن العقاد يطيش ذات اليمين وذات الشمال بلا تدبُّر للعواقب ؟

أيكون المراد أن العقاد لا يبالى ما عليه الناس من عقائد وتقاليد ؟ لا هذا ولا ذاك ، فالعقاد فى هذا الكتاب يساير الناس ويساير العُرف إلى أبعد الحدود ، وإنما المراد أن العقاد يثور على العوامّ بقوة وعنف ، والعوامّ فى هـذا المقام ليسوا هم الطبقة العديمة العلم والمعرفة من التجار والزُّراع والصناع ، وإنما هم طبقة المثقفين من أبناء الجيل الجديد ، والعقاد لم يُضف هـذه الطبقة إلى العوام بصريح المقال ، وإنما أضافهم إليها بلسان الحال

وتظهر هذه الشجاعة فيما كتب العقاد عن « المرأة » فكلامه فى هذا الموضوع الدقيق لا يصدُر إلا عن اللهَمين ، ولو شئت لقلت إنه فَصّل فى هذه المشكلة بما لا يُبقى مجالاً لأحد من بعد ، فقد استوفى الموضوع من أطرافه بكلام مُحكم سديد ، وهو من أقدر الكاتبين على الغوص فى أعماق المعضلات

« خيانة المرأة لا تعاب على المرأة »

هذا كلام غريب ، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً ، فتلك الخيانة المرذولة لها وجه جميل هو الوفاء للحياة

« غرام المرأة بالمال فرعٌ من غرامها بالشباب »

هذا أيضاً كلام غريب ، ولكن العقاد يفسره تفسيراً صحيحاً فقد كانت القدرة على اكتساب المال من أقوى الشواهد على الرجولة فى جميع الأزمان

« المرأة دون الرجل فى جميع الأوصاف وهى لا تقدر أبداً على القيام بما يقوم به الرجال »

وهذا كلام أغرب من سابقَيْه ، ولكن العقاد يقف موقف النمر الشرس ويقول :

« إننا فى عصر يميل إلى محاباة المرأة فيما يكتب عنها من آراء فلسفية كانت أو اجتماعية ، لأن آداب الأندية توشك أن تبنى على آداب الكتابة ومباحث الفكر ، فيحبس الكاتب قلمه عن كل ما ينصف المرأة ولا يوافق دعواها ، كما يحبس لسانه عن ذلك فى أندية الأنس ومجالس السَّمر ، ويكتب حين يبحث فى مسائل الاجتماع بقلم السمير الظريف لا بقلم الناقد الأمين »

ثم يجعل السذاجة والبلاهة والغفلة من نصيب المتطرفين الذين يحكمون بأن المرأة ظُلِمت فيما سلف من عهود التاريخ

والحق أن أنصار المرأة لم يكونوا إلا رجالاً ضعفاء ، فهى لم تخلَق إلا لغاية واحدة ، هى بقاء النسل ، وهى لم تقدر ولن تقدر على مباراة الرجال فى جلائل الأعمال

وكيف تستطيع ذلك وهى قد أشركت بوظيفتها الأنثوية ؟

الرجل هو الذى يخلق المرأة ، يخلقها على هواه ، ويتمثلها كائناً حياً له مآرب وأغراض ، وهى أمام العقل دُمية مصنوعة لا تُفصح ولا تُبين ، بعد ذلك التَّشرك الدميم

المرأة الصحيحة هى المرأة التى عرفها الآباء والأجداد ، المرأة الطبيعية التى أوحت ما أوحت إلى الفنانين والشعراء ، يوم كانت مخلوقاً له قلب خفاق ، وروحٌ حنّان

أما مرأة اليوم فهى مخلوق سخيف ، لأنها تطلب مالا ينبغى لها من الحقوق ، وهى لذلك تافهة القيمة ، سقيمة الإدراك

وتعرّض العقاد للمرأة من جميع نواحيها فأسمعها ما لا تحب أن تسمع . ومن المؤكد أن العقاد كتب عن المرأة ما كتب وهو فى عافية ، لأن الرجل لا يغايظ المرأة إلا وهو خلى ، لأنه حينئذٍ يثق بأنها ستُجذَب إليه ولو ضربها بأعنف السياط

وقاسم أمين لم يكن فى أول حياته من أنصار المرأة ، وإنما كان عدوًّا للمرأة ، فلما ضَعُف تظرّف وصاغ لها عقود الثناء !

ورُوّاد « الصالونات » فى البلاد الغربية لم يكونوا من الفحول ، وإنما كانوا من الظرفاء ، ولو كانوا فحولاً لتغيّر مركز « المتحذلقات » فى التاريخ

وخلاصة القول أن التلطف مع المرأة يجب أن يكون فنًّا من فنون التَّزَل الخدّاع ، فالدمع فى عين العاشق هو السم فى ناب الثعبان ، والثعبان يخدّر فريسته بالسم كما يخدّر العاشق فريسته بالدمع . والاغتيال من ضروب القتال !

لحظات الصفاء

وللعقاد فى كتابه هذا لحظات صفاء ، وأظهر تلك اللحظات هى اللحظة التى كتب فيها مقالة « بين الله والطبيعة » أو « بين التاريخ النابر والحاضر المشهود » . فالعقاد فى هذه المقالة قد ارتفع إلى آفاق السماء ، ولو لم يكتب العقاد غير هذه المقالة لكانت سلّمه الأمين إلى معارج الخلود

كتبها وهو فى أسوان ، وقد نشأ هذا الأديب فى أسوان ، ولعل نشأته فى تلك المدينة تفسّر ما فطِر عليه من الهيام بالفنون

هى مقالة عجيبة فى المعنى والأسلوب ، مقالة كاتب راعته زُرقة السماء فى أسوان ، ومن لم يرَ زُرقة السماء فى أسوان فلن يغنيه الزعم بأنه رأى جمال الطبيعة فى سائر بقاع الأرض .

ولو جُمع ما أوحت أسوان إلى العقول والأحلام فى مختلف اللغات لكانت منه ثروة تَرُوع وتَهُول

وقوة العقاد فى هذه المقالة تستر ضعفه وهو يصور إحساسه حين وقف « على معبد إيزيس » فالفرق بين المقالتين بعيد ، لأن الكاتب كان انتزف قوته فى المقال الأول فهمد فى المقال الثانى ، والقُوى الإنسانية لها حدود

المتنبى فى كتاب المطالعات

انساق العقاد إلى الكلام عن المتنبى وهو يدرس رسالة الغفران للمعرى ، فكانت فرصة لتشريح بعض الجوانب من ذلك الشاعر الصوّال

وتظهر دقة النظر عند العقاد فى أكثر ما كتب عن المتنبى ، فالأدباء يرون تَسامى المتنبى إلى المُلك من شواهد العظمة النفسية ، أما العقاد فيرى ذلك التسامى ضرباً من الخذلان ، لأن المتنبى أخطأ حين « ظن أن السموّ لا يكون إلا بين المواكب والمقانب ، وأن النبالة لا تصح إلا لذى تاج وصولجان وعرش وإيوان » .

ثم انتهى العقاد إلى أن المتنبى المخذول فى طلب المُلك صار على الزمن « أظفر ما يكون خائباً وأخيب ما يكون ظافراً » . فهو « ليس بملِك ولا أمير ولا قائد ولا صاحب جاه ، ولكنه فخر العرب وترجمان حكمتهم ، والرجل الفرد الذى نظم فى ديوان واحد ما نثرته الحياة فى سائر دواوين التجارب والعظات »

وهذا كلامٌ نفيس جدًّا ، ولكنه يحتاج إلى تعقيب ، فانحراف المتنبى فى فهم العظمة الذاتية هو السبب فيما صار إليه من العظمة الباقية على الزمان

المتنبى قضى دهره فى طلب المُلك ، ولو عَقَل لأدرك أن الشاعرية الحق أبقى على الزمن من المُلك

ذلك ما يريد العقاد أن يقول ، ولكن ما رأيه إذا حدثناه أن ذلك الانحراف هو الذى أوجب أن يولع المتنبى بدرس أوهام العوامّ والخواصّ ؟ ما رأيه إذا حدثناه أن تلك النزعة المنحرفة هى التى فرضت على المتنبى أن يدرس الموارد والمصادر من أخلاق الناس وأن يوغل فى التعرف إلى ما هم عليه من هدى وضلال ؟

لو أعفى المتنبي نفسه من طلب الملك لوقف عند الخالص الصريح من أوطار النفس وأهواء الوجدان ، فكان صورة ثانية من البحتري شاعر الروح الصداح والقلب الطروب

طلبُ الملك غيّر ما بنفس المتنبي فنقله من أفق إلى آفاق ، وحوله إلى رجل ظُلَمة لا يهمه غير درس المستور من أصول الوشايات والأراجيف ، وحوّله أيضاً إلى رجل طاغية باغية لا يتذوق معانى العطف والإشفاق

وهل عرف الناس قلباً أقسى من قلب المتنبى ، المتنبى الثائر على الناس والزمان ؟

يجب أن يُفصل نهائياً فى هذه القضية ، فأدب المتنبى من صور اليأس المصوف ، وليس من صور الأمل المطوف ، وهو لذلك خليق بأن ننظر إليه بحذر واحتراس

حظ المتنبي من الشعر الوجدانى حظ ضعيف ، فما سبب ذلك ؟

يرجع السبب إلى أن الدنيا فى عين المتنبي لم تكن إلا مناوح انتهاب واصطياد ، والنهب والصيد يوجبان أن يبكر الرجل إلى المفاوز والآجام وهو فى درع من المكر ، ولثام من الدهاء

زار المتنبى مصر وأقام فيها سنوات ، فاذا رأى فى مصر ، وكانت لذلك العهد ما تزال عامرة بما ترك الفراعين من غرائب الفنون ؟ أين بشاشة الحقول المصرية فى شعر المتنبى ؟

لم ير المتنبى فى مصر غير وجهين اثنين : وجه الفقيه المرائى ، ثم وجه النديم الختُول ، لأن ما كان يطلبه المتنبى كانت المقادير حصرته فى أيدى الفقهاء والندماء

وقد حقد المتنبى على مصر أبشع الحقد ، لأنه لم يرها إلا فى وجه كافور ومن يحيط بكافور . ولو كانت الشاعرية هى التى تسيطر على أهواء المتنبى لوجد لمصر مذاقاً غير ذلك المذاق ، ولكان من المأمول أن تنسيه صرايمها الأواهل وحشة الغربة والانفراد ، ولكن المتنبى كان طالب ملك ، أستغفر الحق ، بل كان يطلب « ضَيْعة » فلم يظفر بغير الضَّياع !

ورحيل المتنبى عن مصر رحيل بغيض ، فقد ثار على مصر فى البادية لا فى الحاضرة ، وذلك يشهد بأنه لم يفكر جديًّا فى تأليب الجمهور المصرى على ذلك « الأستاذ » !

ماذا أريد أن أقول ؟

ما يهمنى النص على ما وقع فيه المتنبى من خطأ وصواب ، وإنما يهمنى القول بأن حرص المتنبى على طلب الملك هو الذى خلق تلك الشاعرية الطريفة ، الشاعرية التى لا تعرف الهيام بالازهار والرياحين ، وإنما تعرف الغرام بالصوالج والتيجان ، فتقضى الدهر فى درس أسرار القصور ، وخصائص أخلاق الحاكمين والمحكومين

ومن المؤكد أنه كان يجب أن يكون فى تاريخ العرب شاعر من هذا الطراز الفريد ، فالمتنبى إذاً من الحجج البواقى على أن الشاعرية العربية موفورة الحظ من تنوع الطعوم والألوان

ملاحظات

لا يتسع المجال لعرض ما أجاد العقاد وهو يدرس المتنبى ، ولكن لا مندوحة من تقييد بعض الملاحظات ، لأن لذلك فائدة فى تشويق الطلاب إلى النقد الأدبى

١ — قال العقاد : « مما لوحظ على المتنبى ولعه بالتصغير فى شعره إلى حد لم يُروَ عن شاعر غيره » فأرجو أن يذكر العقاد أن أعظم الشعراء ولعاً بالتصغير هو ابن الفارض ، وقد فصلت ذلك فى كتاب « التصوف الإسلامى » فلا أعود إليه فى هذا الحديث

٢ — حكم العقاد بأن عصر المتنبي كان « بدعاً فى العصور العربية » وقد قال مثل هذا القول فى عصر ابن الرومى ، فأى قوليه نصدّق ؟

٣ — حكم العقاد بأن المتنبى « لم يفارق كافوراً إلا باختياره » فما حيثيات هذا الحكم ، وفى أى كتاب قرأ أن الرجل يرحل عن بلد يحبه فى ليلة عيد ؟ وكيف غاب عن العقاد أن المتنبى لم يفارق كافوراً إلا بعد أن أصبحت حياته تحت رحمة العيون والأرصاد ؟

٤ — قضى العقاد بأن المتنبى صفح عن أبى العشائر ، وقد كلف أحد الخدم باغتياله وهو سار فى ظلام الليل . فعلى أى سند قضى العقاد هذا القضاء وهو يعرف أن الضغينة أقوى خلائق المتنبى ؟ أيكون استند إلى أقوال من ترجموا للمتنبى ؟ وكيف وهو يعرف أن تلك الأقوال يغلب عليها الإفك والتهويل ؟

٥ — يرى العقاد أن التبحر فى العلوم آفة يبغضها المتنبى ، وحجته أن المتنبى يقول :

أبلغُ ما يُطلَب النجاح به الطبع وعند التعمق الزلل

فهل كان المتنبى من الغفلة بحيث يتوهم أن التبحر فى العلوم آفة إنسانية ؟

هنا دقيقة لم يفطن لها العقاد ، وهى ثورة المتنبي على « فيران المكاتب » كما يعبر الفرنسيون ، و « فيران المكاتب » هم الذين يقولون ولا يفعلون ، فإذا اقترن القول بالفعل ، فتلك ظاهرة يرحب بها المتنبى كل الترحيب

٦ — غض العقاد من عمر بن أبي ربيعة ، لأنه وقف شعره على فن واحد هو النسيب ، ولو تأمل العقاد لعرف أن ابن أبي ربيعة من كبار المبتكرين ، ومن عظام المناضرين ، وهو عندنا أول شاعر رأى قضاء العمر فى الهيام بالجمال عملاً تُنصب له الموازين

٧ — وحكم العقاد على ابن مناذر وابن الضحاك بمثل ما حكم به على عمر ، فأين علمه الصحيح بمواهب هذين الشاعرين ولم يبق لواحد منهما ديوان يشهد بما له أو عليه ؟ وكيف فاته التنبه إلى ما كان لهما من التأثير العميق فى الحياة الذوقية والاجتماعية بالعراق ؟

الظاهر أن العقاد لا يرضيه إلا أن يكون الشاعر مغرماً بتشريح الـ Caractères كما أجابنى حين قلت له إن الشريف الرضى كان أولى بعنايته من ابن الرومى ، فليعرف إن شاء أن الشاعر لا يفكر فى إرضاء الناقدين ، وإنما يفكر فى تأدية الرسالة الموحاة إليه من عالم الغيب ، أو عالم الطبع ، ولا يهمه بعد ذلك أن يقال إنه عرف شيئاً وغابت عنه أشياء

موقف محرج !

لم أصل إلى ما أريد فى تشريح كتاب « المطالعات » للأستاذ عباس العقاد ، لأن منهج هذه الدروس يوجب الاكتفاء بمقال واحد عن كل كتاب ، ولأن امتحان المسابقة سيكون بعد أسبوعين اثنين ، فماذا أوصى به طلبة السنة التوجيهية وهم يراجعون هذا الكتاب الدقيق ؟

أوصيهم بأن يذكروا أن العقاد له فى كل فصل منهج خاص وأنه قد يناقض نفسه من حيث لا يشعر ، لأن يومه قد ينفصل عن أمسه كل الانفصال

وأوصيهم بأن يذكروا أن العقاد مولع بالرنين فى الأسلوب لأنه شاعر ، والشاعر حين يكتب لا يستطيع التخلص من الغريزة الموسيقية ، وهل يطيب النثر الفنى ويجود إلا من الكتاب الذين كانوا فى مطالع حياتهم شعراء ؟

وأوصيهم بأن يذكروا أن عيب العقاد وعيب المازنى فى الغرام بالسجع والازدواج عيب منفور ، لأن هذين الكاتبين لم يكونا إلا شاعرين ضاق عنهما نظام القريض

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازنى والعقاد لم يغتصبا تلك المنزلة الأدبية إلا بجهاد موصول جاوز الثلاثين من الأعوام السِّمان والعجاف

وأوصيهم بأن يذكروا أن غرام المازنى والعقاد بالشرح والتفصيل فيما يعرضان له من دقائق الشؤون يرجع إلى أنهما ابتدءا حياتهما الأولى باحتراف التدريس ، والتدريس يوجب التفكير فى تفهيم الأغبياء قبل التفكير فى مسايرة الأذكياء ، ولعل هذا هو السبب فى اهتمام طه حسين وأحمد أمين بالطواف حول هوامش المشكلات !

وأوصيهم بأن يذكروا أن المازنى والعقاد كانت إليهما زعامة النقد الأدبى فى أعوام الحرب الماضية ، وأن الكتابة السياسية لم تستطع أن تصرف هذين الرجلين عن العناية بالأسلوب

أما بعد فأنا أشعر بأنى لم أقل شيئاً فى العقاد ، مع أنى قلت فيه كل شيء ، فإن كنت أنصفته فقد أنصفته بحق ، وإن كنت ظلمته فقد ظلمته بحق ، ولكنى قبل كل شيء وبعد كل شيء قد انتصرت على نفسى فتناسيتُ ما كان بينى وبينه من القتال فى سنة ١٩٣٥ على صفحات جريدة الجهاد يوم سمحت له نفسه بأن ينضم إلى غريمى طه حسين

والله المسئول أن يطيل حياة هذين الرجلين ، فهما من ذخائر مصر على وجه الزمان . وهل سيطرت مصر على الحياة الأدبية فى الشرق إلا بفضل ما فى أبنائها من شراسة وعرامة واستطالة واستعلاء ؟

زكى مبارك

الذوق الفني في مصر
وأسطورة نهر الجنون
للأستاذ سيد قطب

أسطورة «نهر الجنون» معروفة ، ولكن لا ضرر من التذكير بها في هذا المقام ؛ فهي تتلخص في أن ملكا رأى في نومه أن النهر الجاري بجوار قصره يصاب كل من شرب منه بالجنون . وأصبح فوجد أفراد الشعب كله – والملكة معهم – قد شربوا من النهر وجنوا ، فحزن وقلق على شعبه وعلى رفيقة حياته ، ولم يكن هناك أحد لم يشرب إلا الملك والوزير

وبينما كان الملك ووزيره في شغل شاغل بالطب لهذه الكارثة كانت الملكة حزينة قلقة على الملك الذي جن — في رأيها ورأي الشعب — لأنه لم يشرب هو ولا وزيره ...

وأخيراً، شرب الملك وشرب الوزير !!!

* * *

هذه الأسطورة تتكرر كل يوم في مصر – في عالم الفنون – بين العقلاء المجانين ، وهم قلة قليلة ، والمجانين العقلاء وهم كثرة كثيرة !!

ففي مصر مدرسة فنية عرفت باسم «المدرسة الحديثة» ، وهي تجاهد منذ ثلاثين سنة لرفع الذوق الفني ، بل لخلق الذوق الفني . ولكن الذين اتبعوها لا يزالون فئة قليلة ، والذين فهموها فئة أقل ، والذين تجاوبوا معها بعد فهمها فئة أندر . وهؤلاء هم الذين لم يشربوا من النهر ، ولا تزال آراؤهم في الحياة والفن تثير العجب العاجب بين الشاربين !

وهذه المدرسة يبدو أن كل همها موجه لتصحيح مقاييس الأدب ، ولكنها في الواقع تجاهد في تصحيح مقاييس الإحساس بالحياة جملها وتفصيلها ، وتقويم الأذواق في أصولها وفروعها ، فكل ما هو مادة حياة ومادة شعور ينال عناية هذه المدرسة . ومن ثم كان للموسيقى والغناء نصيب وافر من جهادها

ولقد أغضب زعماء هذه المدرسة وأملأ قلوبهم ظلاماً ويأساً إذا قلت لهم : إنهم فشلوا أشنع الفشل في رسالتهم ، وأن أتباعهم – على قلتهم – ليسوا جميعاً بفاهمين حقيقة دعوتهم لأن طباعهم لا تتسع لها ، وإحساسهم لا يستوعبها

وإني لأخشى أن أقذف بها كلمة مزعجة مؤذية فأقول لهم : إن الظواهر حتى الآن تكاد تجزم بأن طبيعة هذا الشعب ليست على استعداد للتجاوب معهم ، وأن الشذوذ وحده هو الذي أطلعهم بين ظهرانيه ، وأن المشكلة ليست مشكلة الفهم والتفهيم ، ولكنها مشكلة الطبيعة التي لا تتسع لمثل ما في نفوسهم من أحاسيس . وعليهم إذن أن يشربوا من النهر ، أو أن ينزووا عن المجانين العقلاء !

وإنها لصيحة مزعجة ، ودعوى يتمنى مدعيها من صميم نفسه ألا يكون محقاً فيها ، ولكن الدلائل جميعها – مع الأسف – تدل على صدقها الأليم

والخطب في هذه المسألة متفاوت الدرجات ، فقد يكون في الأدب أخف – إلى حد ما – لظهور طبقة قليلة من الشبان تبشر بالخير الضئيل . ولكنه فادح فادح في الموسيقى والغناء . هذه الموسيقى التي لا نسمع غيرها ، وذلك الغناء الذي ليس لدينا سواه . فقد مضت القرون تلو القرون ، وليس لنا موسيقى واحد ، ولا مغن واحد . وكان «سيد درويش» فلتة شاذة ، وهو مع هذا لم يرتفع إلى المستوى العالمي ، ولكنه كان «إنساناً» في فنه ، يحمل طابع الآدميين ، وكان هذا كسباً ، لأن «الآدمية» وحدها ، لا الآدمية الممتازة هي التي نفتقدها في موسيقانا وغنائنا ، فلا نعثر على ظل لها في الجميع ، وما نزال نسمع ألحاناً وأنغاماً ، هي رجع التأوهات الحيوانية المريضة وصدى الميوعة المسترخية المتوفة ، دون أن يخطئ ملحن أو مغن مرة واحدة فيسمعنا صوت الإنسان السليم !

والقارئ يرى من هذه الكلمات ، أن قائلها «لم يشرب من النهر» ولا شك . وإلا فهل يصدق أحد والأغاني ترن في الآذان ليل نهار ، وتحملها أجنحة الأثير بالعشي والأبكار ، أن ليس في مصر مغن واحد ولا مغنية منذ أجيال ، وليس فيها ملحن واحد منذ قرون ، وليس فيها موسيقى واحد في تاريخها الطويل ؟ .

أهذا كلام ؟ ! أليس هو الجنون بعينه ، أو العقل الذي هو عين الجنون ؟

في مصر مطربون ومطربات ، وفي مصر مُلحنون وموسيقيون ، والشعب كله يردد أغانيهم وألحانهم ، ويتهافت على حفلاتهم ورواياتهم ، ويدمى أكفه من التصفيق إعجاباً بهم ، فهل يصدق أحد أن مصر – فيما عدا أغاني سيد درويش لم تطعم الموسيقى ، ولم تتذوق الغناء ، ولم يتردد في جوها صدى واحد فيه مسحة الآدمية ؟

هذه قولة غليظة – لم تشرب من النهر – ولكنها كانت خليقة أن تنبض بها كل فطرة ، وأن يرددها كل لسان ، لولا أن الجميع قد شربوا مع الأسف شربوا حتى فقدوا وعيهم فهم مخمورون لا يفيقون من هذه الألحان المريضة ولن يصدقوا من يقول لهم : إنهم مخمورون ، لأن الأغلبية لا بد أن تكون هي الواعية في جميع العصور !

***

وبعد فما جدوى هذه الكلمات ؟

لقد كان يرجى لها بعض الفائدة ، لو مرت مع الشاربين المخمورين إلى منتصف الطريق ، وكتمت عنهم نصف الحقيقة ، وارتضيت أنصاف الحلول . لو قلت لهم : إن هناك أغنيات وألحاناً سليمة وأخرى غيرها مريضة ، وأنك تعجب من فلان أو فلانة بكذا وكذا ، وتنكر عليهما كيت وكيت . . .

أما وأنت تجبه هذه الملايين – على اختلاف ذوقها الفني – بأن ما يستحسنونه سواء من حيث أنه لا ينتسب إلى فن الموسيقى وفن الغناء ، وأن ما يسمعون إنما يتفاضل في دائرة بعيدة عن دائرة الفنون الآدمية ، فيرتفع أو ينحط ، ولكنه لا يعبر في ارتفاعه أو انخفاضه عن نفس إنسانية على الإطلاق . . .

أما وأنت تدعي هذه الدعوى غير المعقولة ، فلا سمع ولا تصديق وعليك أن تشرب من النهر الذي شرب منه الجميع . . .

هذه كارثة . كارثة أن نعيش أمة كاملة بلا موسيقى ولا غناء وأن يكون غذاؤها الروحي هو هذا الترنيم المريض الزائف . وأشد من هذه الكارثة هولا أن تستسيغ هي هذا الغذاء

ولست أدري كيف يكون العلاج ، والذين يتولون العلاج في غالب الأحيان هم أنفسهم مخمورون ، شاربون من النهر ، وإن نموا على الشاربين !

موسيقى جديدة وتلحين جديد ومطربون ومطربات جدد ، وأذواق للسامعين غير هذه الأذواق . أذواق لا تستسيغ أية قطعة أو لحن مما تتردد في مصر منذ مئات السنين . كل هذا وفي آن واحد هو ما نحتاج إليه لتحسب في عداد الآدميين

والمعجزة وحدها هي التي تستطيع أن تفعل ذلك لا الجهد البشري ولا المدرسة الحديثة ، ولا عشرات الكتب ، ولا ألوف المقالات في الصحف

وتسألني : وفيم إذن تكتب هذه الكلمة ، وتشغل بها فراغاً من صفحات هذه المجلة ، وفراغاً من وقت القراء ؟ فأجيبك : إنها صيحة من لم يشرب من النهر ، أو هي صيحة الجنون في عرف المجانين !

(حلوان) سيد قطب

تقويم هذا العام

للأستاذ عباس محمود العقاد

تقويمُ هذا العام من لحظاته الأولى لديك
قومي ارفعيه وارفعي عنه الغطاء براحتيك
من يوم مطلعه إلى رُجْعاه ، موقوفٌ عليك

***

وإذا انتهت أيامه ولكل عام منتهاه
فعليك أنت وداعه وترحّبين بما تلاه
ونجِى إذا دار المدى ورعيتُ وحدي ملتقاه !

***

هي قبلةٌ ضمت عُرَى عامين فاتصلا اتصالا
ومُنى الخواطر في غدٍ عام كسابقه مآلا
لا نعجلن به فما أقسى الحياة على العَجالى

***

لا . لا . فهذا يومنا وغدٌ ، وبعد غد ، خفاء
أنا مغمضٌ عيني ومستمع إلي حادي الرجاء
فإذا سمعت حداءه فدعيه يمضي حيث شاء

عباس محمود العقاد

خواطر فى رأس السنة

للأستاذ صديق شيبوب

النظام أساس العالم ، والتوقيت من الأسس التى يقوم عليها النظام . عرفه الإنسان منذ عصوره الأولى ، أى منذ لاحظ أن اليوم ليل ونهار ، وأن الأيام يتلو بعضها البعض الآخر متشابهة فى شكلها البارز ، متباينة طولاً وقصراً ، وبرداً وحراً . فإذا الأيام مجموعة فى فصول ، والفصول مقسمة إلى شهور ، والشهور مضمومة فى السنة . ولم يلبث التوقيت بالسنة أن استولى على الإنسان فى كل مرافقه

لكل إنسان على اختلاف عمله سنته الخاصة به . فللمزارع سنة ، وللتاجر سنة ، وللعامل سنة ، حتى الحكومة عندنا لها سنتها المالية الخاصة ؛ وللشمس سنة ، وللقمر سنة ، وللنجوم سنة . وكل واحدة من هذه السنين تختلف فى بدايتها ونهايتها عن السنين الأخرى ؛ فسنو الأجرام السماوية موقتة بدورانها ، وسنو طبقات الناس موقتة باختلاف الفصول وتأثيرها عليها

على أن الناس إذا اختلفت سنتهم الخاصة وفقاً لأعمالهم وأغراضهم فقد اعتنقوا كذلك سنة بعض الأجرام السماوية ، وخاصة الشمس والقمر . فجعل بعضهم السنة الشمسية ، كما جعل البعض الآخر من السنة القمرية ، عامة لكل الطوائف

هذا دليل من الأدلة على أن الإنسان يتطلع أبداً إلى السماء كأنها مهبط وحيه ومصدر هديه فى حياته . فعيناه أبداً مرفوعتان إليها يتأمل فى قبتها الزرقاء الجميلة ، ويسر بانعكاس أضوائها ، وغرابة غيومها ، واختلاف ظلالها ، وتنوع ألوانها ، من فجر طالع ، إلى صبوح براق ، إلى غبوق داكن ، إلى شفق أحمر لامع إلى غسق أسود ، إلى ليل حالك ، ويعجب بخطوطها الزرقاء التى لا نهاية لها ، وأجرامها المتقدة كأنها أنوار تتلألأ فى بحر لا شاطئ له ، وبجوهراتها الساطعة التى لا توزن حجارتها بالمثقال . إنها ثروة عظيمة بعيدة المنال ، لا ينضب معينها ، ولا تزول بهجتها ، ولا تنحط قيمتها ، لا أول لها ولا آخر ؛ لا يستطيع الإنسان جمعها ، أو تناولها ، أو فقدها ، أو هبتها ، أو توريثها ، ولا يحول بينه وبينها غير الموت

ولكن الموت إذا نزل بالإنسان فإنه أضعف من أن ينزل بها وأن يزيل بهجتها ورواءها . إنه مثل النسر المحلق فى كبد السماء العاجز عن أن يحول دون تغريد البلابل

فالسماء رمز الأشياء التى لا تموت . هذه شمسها تعتلى قبتها العميقة كأنها هاوية لا قرار تنتهى إليه ولا جبال ولا أرض تضمها ؛ هذه الشمس تشرق وتغرب على مناظر الطبيعة فى شتى الفصول تثبت حرارتها فى الأرض وما عليها . وهذا القمر حالم فى تنقله وتطوره ، وهذه النجوم تشع بريقاً كأنه خفق فؤاد مضطرم ...

لله أحلام الإنسان وآماله التى تلتقى عند هذه النجوم ! إنها محط أنظاره يسائلها عن ماضيه وحاضره ، ويرى فى بعضها مصدر تفاؤله وفى البعض الآخر مبعث تشاؤمه ، بينما هى فى أبراجها سابحة تتابع سفرها الطويل اللانهائى لا تحير ولا تبدى ، ولعلها لا تراه ولا يخطر لها ببال ، ولا علاقة تربط بينها وبينه

على أنها مصدر راحة وطمأنينة فى سكونها الغريب . والسماء تتحدث إلى الإنسان بلغة عجيبة لا يستطيع التعبير بها أبلغ الألسنة . إن فى سكونها الرائع أعظم بلسم لشفاء القلوب . إنها قد تروع فكره حيناً ، ولكنها — مهما اختلفت اعتقادات الناس بها — تظل غذاء للنفوس ببريق ألوانها وسطوع شموسها وأقمارها ، وفكرة الاستقرار والسمو التى توحيهما إليها

ما أجمل الحياة لو قضيناها محدقين فى السماء !

* * *

يثير التحديق فى السماء فى نفس الإنسان فكرة أصله ومصيره . من أين أتى وإلى أين يذهب ؟ هل الوجود والعدم سيان ! وإذا كان مصدره لا يثير اهتمامه لأن الماضى قد فات ، وهو فى ذمة التاريخ ، فما المستقبل ؟ كيف يمهد له أسباب الطمأنينة والسعادة ، وما غايته التى ينشدها فى وجوده ، وما قصده من مصيره ، والمصير من عالم الغيب ، ولكنه الرجاء يحدو الإنسان والآمال تبعث الشجاعة لقلبه ونفسه . والإنسان يقارن دائماً بين الماضى

والمستقبل ، متبرماً بالماضى منتظراً من المستقبل ما يعوض عليه ما فات . فكم سمعناه يقول : « لو كنت أدرى ... » و « إذا أتيح لى أن أعيش من جديد ... »

أما الرجل الحكيم فهو الذى يعرف كيف يوفق بين الماضى والمستقبل ، فكأنه يقضى حياته محاولاً استخلاص الحكمة مما يمر به من الحوادث ، والحكمة كلة كبيرة تدل على صفاء العقل والقلب . وما أحوج العالم اليوم إلى مثل هذا الصفاء !

إذا نظر الإنسان إلى الحقائق الواقعية وجد أن الصبر من أدق مظاهر الحكمة ، وله فوائد جمة تعود على صاحبه بالرضا . ومن فقده فقد خيرات وفيرة ، لأن الزمان لا يحترم غير الأعمال التى كان الصبر من أكبر العوامل التى ساهمت فيها .

كان الكردينال مازارين ، الوزير الفرنسى الكبير ، يقول : « أنا والزمان » ، وهو قول ينطبق على أفعال أعظم أمة فى هذا العصر . وقد وصل الوزير الفرنسى بالمبدأ الذى سار عليه إلى أعلى قمم المجد ، كما وصلت إليه الأمة البريطانية لأن الصبر معناه الرزانة والتعقل . لذلك نجد الصبر من المزايا التى يتحلى بها الإنسان فى سنى نضوجه وشيخوخته ، لأن فى الشباب حماساً يدفعه إلى تعجل الأمور ، وهو يتولى فى وقت واحد حل شتى المسائل فى أقصر مدة من الزمان

ومن غرائب الاضداد عجلة الشباب وصبر الشيوخ . يستعجل الشباب الأمور وهو يعرف أن أمامه متسعاً من الحياة يتيح له التريث فيها ويعالجها الشيخ فى أناة وصبر بينما يشعر أن ما بقى له من العمر قصير الأجل وأن الحياة تفلت من بين يديه وأن الموت قريب منه واقف له بالمرصاد

وهذه ظاهرة تصدم المنطق صدمة قوية ولكنه ينتقم لنفسه إذ يدلل على أن الأعمال المرتجلة هباء تذروها رياح الحياة ، وأن الزمان أداة قوية تطالب قسطها من الاحترام له ، وأنه سيد يجب إعطاءه ماله من حق

والطبيعة خير أستاذ للناس فى احترام الزمان لأنها ترضى بأحكامه وتخضع لقوانينه ، فلكل ظاهرة من ظواهرها مدتها المقررة وفصولها المعروفة . لأن الطبيعة قوية تصمد لتقلبات الزمان ولا تتأثر بها

حقاً إن الصبر من أبرز الدلائل على القوة ، وهو من أكثر مزاياها أناقة وطرافة

* * *

كم فى الحياة من اضداد تباعد بين المظهر والحقيقة !

يعيش الإنسان موزعاً بين المنافع التى يصبو إليها والغرائز التى تتنازع نفسه ، وهو يحاول أن يوفق بين هذه وتلك وأن يضفى عليها ثوباً تظهر فيه للناس من غير أن تفقئ عيونهم

هناك عصور يستولى فيها الكذب على الإنسان فرداً ومجموعاً يعرف المجموع مواضع ضعفه فيخفيها ويظهر بمظاهر القوة والغطرسة . ويعلم الفرد أنه حفنة من تراب فى مصدره ومصيره بينما تمتلئ نفسه كبرياء وخيلاء . وتقبل كل طبقة من طبقات المجتمع على التعالى للوصول إلى ما فوقها : وطبقة العمال أقصى همها التركز لتوازى الطبقة الوسطى (البرجوازية) بينما هى تحتقر مبادئها وتقاليدها . وتحاول الطبقة الوسطى التسامى إلى الأرستقراطية بينما تتناول وسائلها وترفها ومظاهرها بنقد شديد

تنعت المرأة الرجل بالقوة وهى تعرف مكامن ضعفه ، ويصف الرجل المرأة بالجمال وهو يعرف أن فى الرجولة جمالاً لا تقاربه الأنوثة . وهكذا أضفى كل واحد من نوعى البشر على صاحبه نعوتاً لا يعتقد بصحتها . وقد خلق كل واحد لصاحبه مزايا ثم اطمأن إليها . ولعل أبرع هذا الخلق وأجمله خلق الرجل للمرأة ، فقد بنى لها عرشاً وأجلسها عليه آلهة يطالع فى عينيها سعادته وغبطته ، ويستنزل من جنانها نعمته ولذته . والغريب فى هذا أنه صادق فى عقيدته التى اختلقها ، مغرور بكذبه الذى أجراه ، وأن غبطته فى أن يغتر بهما

ولا غرو فى ذلك فكثيراً ما يضحى الإنسان بسعادته فى سبيل لذته ، وتسهل عليه هذه التضحية إذا تعودها . إن طريق اللذة مفروش بالدمقس والحرير بحيث يستطيع السير عليه من وُلد حافى القدمين كما يسير على العشب الناعم . أما السعادة فقد خلقت للصالحين من البشر ، إما لأنهم يعتقدون بأنهم سعداء ، أو لأنهم ينتظرون السعادة مطمئنين إلى نوالها .

فالسعادة مطمح النفوس الكبيرة ، وكل نفس شريفة إذا

السياسة التوجيهية
فى الأزهر
للأستاذ محمد محمد المدنى

فى العدد (٣٩١) من « الرسالة » مقال كتبه الأستاذ محمود الشرقاوى ، بمناسبة مقال فى العدد الذى قبله للدكتور محمد البهى عن « شخصية الأزهر العلمية »

والأستاذ الشرقاوى يصف مقال الدكتور البهى بأنه مقال جيد ، وفيه صدق كثير ، وقد أثار فى نفسه طائفة من الخواطر يعتقد أن فيها — هى أيضاً — صدقاً كثيراً وفيها صراحة

ومع أن الأستاذ يبدو معارضاً لفكرة الدكتور ، بل مهاجماً له فإن من يتأمل فيما قاله يجده قد وافقه فى كل ما قاله ، ثم نقل البحث إلى شىء آخر

ولست فيما أكتب اليوم بالمدافع عن أعضاء البعوث الأزهرية إلى أوربا ، فذلك شأن يخصهم ، وهم أولى بأن يردوا على أسئلة الأستاذ التى وجهها إليهم ؛ ولست كذلك مهاجماً لأحد من الناس أو لطائفة من الطوائف ، ولكنى أريد أن أقول إن الأستاذ الشرقاوى لم يكن صريحاً على الرغم مما ادعاه لنفسه من الصراحة فى أول مقاله ؛ فهو يقول للدكتور البهى : لا تحدثنا عن إنتاج جماعة كبار العلماء ، ولا عن قيمة هذا الإنتاج فى نظر العلم ، ولكن حدثنا عن إنتاج هذه البعوث الأزهرية التى أنت واحد من أعضائها ، والتى وضع الأزهر فيها آماله ، وظل يرقبها فى لهف وشوق ، مملأً نفسه بعهد جديد يمتاز بالحرية فى الرأى ، والاستقلال فى التفكير : أين هو هذا الإنتاج ؟ وأين طابع هذه البعوث الخاص الذى تتميز به عن أشياخها ؟ وأين التجديد الذى أفاده الأزهر من بعثة الإمام محمد عبده أو بعثة فؤاد الأول ؟

هكذا يتساءل الأستاذ ، ثم يصرح بأنه لم ير دليلاً يدل على أن هذه البعثات قد جددت ، أو سارت على نهج غير النهج الذى سار عليه الأشياخ من قبل « فلا هى قد أقامت فى الأزهر مدرسة للتجديد خاصة ، ولا نهجت فيه منهجاً دراسياً ولا تأليفياً خاصاً ، ولا لات حولها معسكراً جديداً يرفع معها وبعدها شعلة النور فى الأزهر ... الخ »

ثم يحاول الأستاذ تعليل ذلك ، فيجد نفسه « أمام واحد من فرضين : إما أن تكون هذه البعوث لم تفد شيئاً مما درست فى جامعات أوربا ، ولم ترتفع بتفكيرها عن أشياخها وعن زملاء أعضائها الذين لم يبعثوا ولم يدرسوا ... وإما أن تكون هذه البعوث العلمية قد أفادت من دراستها الأوربية عقلية جديدة حرة وتفكيراً جديداً حراً ... الخ »

كانت طموحة ، لأن الطموح يتطلب قوة وتضحية ، وهو فى مجموعه دليل على كبرياء النفس ، والكبرياء فضيلة إذا كانت سلاحاً من أسلحة النضال

إن مظاهر الكذب التى ألممنا بها تجعلنا نستنتج أن كل الناس يمثلون دور المنفعة على مسرح الزمان ، وأنهم فى اطمئنانهم إلى ما يلعبونه يصبح الدور الذى يمثلونه أقرب إلى حقيقتهم من الأصل . لقد أصاب شكسبير كبد الحقيقة عند ما تلهى بهؤلاء الأشباح وجعلهم يمثلون دور المجانين حتى صاروا فى حقيقتهم مجانين

إن الأشياء والبشر كافة يغالطون فى هذا القمار العظيم الذى ندعوه الحياة .

القلب يغالط العقل ، والعقل يغالط القلب ...

يولد الطفل ممسكاً بيديه أوراق لعب كبيرة ثم يرميها فى الحياة مناضلاً بها فإما أن تنطلى حيلته فينعم بما ربح ، وإما أن تنفضح فيشقى بما فقد

* * *

وبعد ، فقد تعودت كل طائفة من الناس النظر فى شئونها عند نهاية السنة المقررة لها . فالزارع يجيل رأيه فيما زرع وحصد ، والتاجر يوازى بين ما اشترى وما باع ، والحكومة توازن بين ما جمعت وما أنفقت ؛ وهكذا فإن من فضائل الوقف بين عامين أنه يثير فى النفس شتى الأفكار والتأملات

وقد تنازعت نفسى هذه الأفكار وأنا أصغى إلى صراخ الإنسانية وأنينها ، وإلى دوى المدافع وترجيع صداها ، وإلى خصومات الأمم ودعاياتهم ، وإلى صرير أقلام الكتاب ودوى آلات الإذاعة والطباعة ؛ فرأيت أن أدون ما جال بخاطرى ، ولعلى أصبت المرمى ولم أخطئ السبيل .

صديق شيبوب

ردد الأستاذ بين هذين الأمرين ، ولكنه نفى الأول منهما مستدلاً بأن أعضاء هذه البعوث جميعاً مبرزون فى دراساتهم الجامعية ، وفى درجاتهم العلمية التى نالوها ، وفى البحوث التى فازت بالتقدير ، فهو إذاً يستبعد الفرض الأول ويستبقى الفرض الثانى ، وهنا ينتهى عهده مع الصراحة ، فيفر من مواجهة الحقيقة التى يراها ، ويعود إلى الترديد فيقول : هل يتوجه اللوم فى عدم إنتاج هذه البعثات إليهم أم أين يتوجه ؟

كأنى بالأستاذ الشرقاوى يريد أن يكون صريحاً فى نفس الموضوع كما كان صريحاً فيما وجهه إلى الدكتور البهى ، فهو يهم بأن يطلق لنفسه العنان ثم يعود فيؤثر الأبهام ، وكأنى به متفقاً مع صاحبه فى كل ما ذكره غير مخالف له فى شىء منه ، ولكنه يؤثر أن يظهر فى ثوب المعارض له

ولا علينا من ذلك ، ولكننا نسأل الأستاذ الشرقاوى : ما هى الناحية الثانية التى يحتمل أن يتوجه إليها اللوم ؟ ما هو هذا الشىء الذى يحتمل أن يكون قد صرف أعضاء البعوث عن الإنتاج مع قدرتهم عليه ؟ أتقصد به أن البيئة الأزهرية غير صالحة لتلقى الفكر الجديدة ، وتقبل الإنتاج الحر المبنى على التفكير المستقل لأنها ما زالت تعد التجديد خروجاً على ما ينبغى من تقديس القديم والفناء فيه ، والدوران من حوله ؟ أم تقصد أن التجديد والإنتاج العلمى مرتبطان بالسياسة التوجيهية ، فكلما كانت هذه السياسة ماضية فى طريقها القويم ، حريصة على تشجيع العاملين ، وإثارة الجهود، والانتفاع بالمواهب ، نما الإنتاج، وكثر المنتجون ، وتشجع العاملون . وكلما انحرفت هذه السياسة عن طريقها القويم وأدخلت فى تقدير الأعمال اعتبارات غريبة عنها ، فترت الهمم ، وكلت العزائم ، وضعف التفكير ، وقل الإنتاج ؟

نحن نعرف أن كثيراً من الاعتبارات قد يعوق سير الإصلاح ، ويصرف الساسة الموجهين عن الطريق ، ويلويهم من حيث يريدون أو لا يريدون عما رسموه من الإصلاح وأخذوا به أنفسهم من التوجيه

فقد يكون فى بيئة من البيئات رجل حر الضمير ، مستقيم الفكرة ، له فى الإصلاح برنامج شريف ، وله غيرة محمودة على هذا البرنامج ، ولكنه مع ذلك لا يرى بأساً من أن يجامل شخصاً ما فيسند إليه عملاً ممتازاً من الأعمال الإصلاحية ، لا لأنه ممتاز فى نفسه ، ولا لأنه ناجح فى عمله ، ولا لأنه لا يوجد فى أقرانه من هو خير منه ، ولكن لاعتبار آخر ، كأن يكون صديقاً مثلاً ، أو أن يكون قد تطلع فى يوم ما إلى منصب ما فلم ينله ، فمن الرأى أن يترضى ، ومن الرأى أن يعوض !

وقد يحيط بالمصلح الشريف المخلص أعوان شرفاء مخلصون لا يدفعهم إلا الإخلاص للفكرة الإصلاحية ، ولكنه مع ذلك ربما أهمل آراءهم ، لا لأنه بحثها فتبين وجه الخطأ فيها ، ولا لأنه اقتنع بأن غيرها أولى بالقبول منها ، ولا لأن أصحابها مشكوك فى إخلاصهم أو فى حسن تقديرهم ، ولكن لاعتبار آخر لا ينبغى أن ينظر إليه ، ولا أن يغلب جانبه ، كالميل إلى تمثيل عنصر معين فى ناحية من النواحى

وقد يخضع المصلح لاعتبارات أخرى غير هذه وتلك ، يدفعه إليها على الرغم منه قانون تقليدى ، أو عرف قائم ، فتراه مثلاً لا يسند أعمالاً خاصة إلا إلى طائفة خاصة ، لا لأن هذه الطائفة أجدر من غيرها بتولى هذه الأعمال ، ولا لأنها أقدر من غيرها على السير بها فى طريق النجاح ، ولكن لاعتبار آخر قد لا يكون له صلة بهذا الموضوع أصلاً ، كاعتبار شرط التوغل فى السن مثلاً فى حق الأعضاء الذين ينتخبون لعضوية جماعة ما ، أو يرشحون لتولى منصب ما وهكذا

نعرف هذا كله ، ونعرف أنه شر ما تصاب به بيئة من البيئات ، وأنه داء خطير يصيب الإنتاج العام بالشلل ، ويؤدى إلى الجمود والركود ، ثم إلى الانحلال والموت !

ونعرف أيضاً أن العامل الذى يجد أن المقاييس التى من حوله ليس أساسها التفكير والعمل والدأب والإنتاج ، وإنما أساسها شىء آخر غريب عن هذا كله ، وبعيد عن هذا كله ، هذا العامل لا يلبث أن يفتر ، وأن يضعف ، لأن القدرة على الإنتاج وحدها غير كافية ، ولكن ينبغى أن يصاحبها التشجيع والإغراء

فهل يريد الأستاذ الشرقاوى شيئاً من ذلك ويمنعه شىء ما أن يقوله ، وأن يكون صريحاً فيه ؟

ألا إنه لو علل ما يقول به من عقم البعوث العلمية بالسياسة التوجيهية لما كان منصفاً ، ولما قال صواباً ، فإن على رأس الأزهر شيخاً ممتازاً فى تفكيره، ممتازاً فى شخصيته، بعيد النظر فيما يقدم

عليه أو يحجم عنه من عمل ، وهذا الشيخ العظيم فوق أنه يشرف على الأزهريين من أسمى مكان فى الأزهر ، يتمتع من حبهم وطاعتهم وحسن انقيادهم بما لم يتمتع به أحد من شيوخ الأزهر ، فلا يستقيم مع هذا أن تكون السياسة التوجيهية فى عهده ملتوية عن الطريق ، غير مؤدية إلى الغرض المنشود . ولن يرضى الأستاذ الأكبر بأن يضع بالأمس أسس الإصلاح ، ويرسم منهاج النهوض ، ويضيء شعلة التجديد ، حتى إذا اجتذب بها القلوب ووجه إليها النفوس ، وضعها فى طريق العواصف الجامحة من رغبات أو شهوات

فلنستبعد هذا الغرض ، فلا يبقى معنا إلا أن الأزهر لم يصبح بعد بيئة صالحة لتلقى الإنتاج العلمى الذى أساسه التفكير الحر ، والاستقلال فى النظر ، وعدم افتراض الثقة المطلقة إلا فيما ورد عن المعصوم

فهل هذا هو ما أراده الأستاذ الشرقاوى ؟ إن يكنه فلا ينبغى أن يعد العقم فى الإنتاج قصوراً فى البعثات الأزهرية ، ولا عيباً فى السياسة التوجيهية ؟

محمد محمد المدنى
المدرس بكلية الشريعة

العقـــــد الفريد

للأســـتاذ محمد سعيد العريان

(بقية ما نشر فى العدد الماضى)

قد قدَّمنا القولَ فى صدر هذا البحث أنه لم يسبق ابنَ عبد ربه إلى التأليف فى باب الأخبار والنوادر على هذا النحو إلا ثلاثةُ نفر : الجاحظ ، وابن قتيبة ، والمبرّد .

أما الجاحظ والمبرّد فقد كان لهما نهج فى التأليف يخالف نهج العقد ، على اتفاقهما فى الموضوع والغرض ؛ فكان انتفاعه بما اطلع عليه من مؤلفاتهما فى المادة لا فى الطريقة . وأما ابن قتيبة ، فإن بينه وبين ابن عبد ربه مَشَابهَ من وجوه ، حَمَلتْ بعض الباحثين على الزعم بأن صاحب العقد كان فى نهجه وفى تبويبه لاحقاً مقلِّداً ، بل قد غلاَ بعضهم فى الاستنتاج فزعم أن ابن عبد ربه قد سطا على كثير من كتب ابن قتيبة ، فنقلها نقلاً إلى عقده بحالها من غير تغيير كبير . وإنه مما يقوّى هذا الزعم ، تلك الشهرة العظيمة التى كان يحظى بها ابن قتيبة عند أهل الأندلس ، حتى كانوا يتهمون من خلت مكتبته من مؤلفاته . ولكن العقد الفريد على الرغم من ذلك غير عيون الأخبار ، وابن عبد ربه غير ابن قتيبة ، ولكل من الرجلين شخصيته المتميِّزة بوضوح من خلال مختاراته ، ولكل منهما مزاجُه وروحه ومذهبه وجوُّه الذى يعيش فيه ويُصدر عنه ؛ فسواء كان هذا الزعم صحيحاً أو مبالغة فى الاستنتاج ، فلن يضيرَ ذلك صاحبَ العقد شيئاً ، ولن ينقص شيئاً من قدر كتابه ، إذ كانت المادة التى اجتمع منها الكتابان ليست ملكا لأحد الرجلين ، ولا هى أثراً من إنشائه الأدبى الخالص ؛ ولكنها تراثٌ مشترك يتوزَّعه أبناء العربية مما خلَّف آباؤهم

... وليس ممنى أنه لم يسبق ابن عبد ربه فى بابه إلا هؤلاء النفرُ الثلاثة أنه لم يأخذ من غيرهم ، ولكن الذى نعنيه أن انتفاعه بكتب هؤلاء النفر كانت أظهر دلالة على نفسها ؛ وإلا فقد كانت مكتبة قرطبة لهذا العهد حافلة بطائفة من الكتب لم يجتمع مثلها فى زمان فى مكان ، فلا بد أن يكون ابن عبد ربه قد استفاد منها بالكثير إلى جانب ما أخذ من أفواه العلماء المغاربة الذين كانت لهم رحلة إلى المشرق أذاعوا بها علم العربية بين الشرق والغرب

* * *

ويقول الأستاذ أحمد أمين عميد كلية الآداب فى جامعة القاهرة ، فى بحث نشره للتعريف بصاحب العقد (مجلة الثقافة ، العدد ٩٤ — ١٥ أكتوبر سنة ١٩٤٠) : « إن أمالى أبى على القالى كانت هى النواة الأولى التى بذرها أبو على فى الأندلس من علوم المشرق ، وعليها تخرج مشهورو الأدباء فى الأندلس ، ومنهم ابن عبد ربه ... »

وظاهر كلام الأستاذ العميد صريح فى أن ابن عبد ربه كان لاحقاً لأبى على القالى ، وأنه من تلاميذه ، وأن كتاب « الأمالى » أسبق من « العقد الفريد » ، وأنه أول ما نقل إلى المغاربة من علم المشرق ...

وأرى هذا كله خطأ لا يستند إلى دليل من التاريخ ، فقد

كان مَقْدَم أبي على القالى إلى الأندلس بعد وفاة ابن عبد ربه بسنتين وأشهر (توفى ابن عبد ربه بقرطبة سنة ٣٢٨ ، وكان مقدم أبي على القالى فى إمارة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٣٠) ، وكان تأليف كتابه الأمالى بعد مقدمه بسنين ؛ إذ كان هذا الكتاب هو مجموع محاضراته فى جامع قرطبة

فإذا أضفنا إلى ذلك أن ابن عبد ربه قد فرغ من تأليف كتابه « العقد » فى سنة ٣٢٢ على ما نرجحه ، وقدرنا المدة التى أملى فيها أو على محاضراته فى جامع الزهراء قبل أن يجمعها فى كتاب ببضع سنين ، كان لنا من ذلك برهان لا يدفع بأن العقد الفريد كان أسبق من الأمالى ببضع عشرة سنة ؛ فلا وجه هناك للقول بأن ابن عبد ربه كان من تلاميذ أبي على ، وبأن كتابه على منهاجه

وأما قوله إن كتاب الأمالى كان النواة الأولى من علم المشارقة فى الأندلس ، فينقضه ما كان معروفاً قبل ذلك فى الأندلس من كتب القوم ، حتى روى ابن كثير فى تاريخه : أن أهل المغرب كانوا يتهمون من لم يكن فى بيته من مؤلفات ابن قتيبة شىء ؛ (توفى ابن قتيبة سنة ٢٧٦ ، وكان مولد أبي على سنة ٢٨٨) ، وكان للمغاربة من العناية بتحصيل علم الشرق والتبكير إليه ما دعا المستنصر إلى أن يرسل وراء النسخة الأولى من كتاب الأغانى لأبى الفرج فيشتريها بألف دينار ...

أضف إلى ذلك أن رحلة المغاربة إلى الشرق كانت متصلة لطلب العلم منذ أوائل القرن الثالث ؛ فلا يمكن مع هذا أن يكون علم أبي علىّ جديداً على أهل الأندلس فى أواسط القرن الرابع ، وأن يكون نواة وقدوة ، ومنشىء مدرسة يتخرج عليها مثل ابن عبد ربه مؤلف العقد ... ...

***

ويتحدث ابن عبد ربه فى مقدمته عن « تأليف الإختيار وحسن الاختصار » ؛ فأى معنى لما يذكر من حسن الاختصار فى هذا المقام ؟ أتراه يعنى حسن الاختصار فى المجموع ، أو فى كل خبر على حدته ؟ أعنى : هل كان ابن عبد ربه يروى الخبر بحروفه كما سمعه أو قرأه من غير اختصار فيه ، وإنما كان يختصر فى كل جملة ما روى من الأخبار بحيث لا يثبت منها إلا ما تدعو الحاجة إليه ، أو كان يختصر الخبر نفسه فيحذف من حروفه ما يحذف وينقص ما ينقص ذهاباً إلى الاقتصاد فى التعبير عن المعنى الذى ينقله ؟ ...

أقول : هذا كتاب العقد بين أيدينا ، وقد نظرت فيه طويلاً ، وعاودت النظر مرات ؛ فبدا لى من طول المراجعة أمر لا بد من التنبيه إليه : ذلك أن بعض دواعى ابن عبد ربه فى تبويب كتابه ، كانت تقتضيه أن يثبت الخبر مرات فى أبواب متفرقة ، لصلاحيته للدلالة فى أكثر من موضوع واحد ؛ فإذا أنت حققت النظر فى هذه الأخبار المكررة فقلّ أن تجد منها خبراً مروياً فى موضعين بحروفه على وجه واحد ؛ فثمة الحذف والزيادة والإبدال ؛ وليس هناك من سبب – فيما نرى – لهذا الاختلاف فى رواية خبر واحد فى كتاب واحد لمؤلف واحد إلا أن يكون المؤلف يملك من حرية التصرف فى رواية هذه الأخبار ما يسمح له أن يرويها بلغته ، ويؤديها على الوجه البيانى الذى يراه ؛ فهو يرويها بالحذف والاختصار حيناً ، وبالبسط والزيادة حيناً آخر ؛ ... فهل كان ذلك بعض ما يعنيه ابن عبد ربه بـ « حسن الاختصار » ؟ ...

... ولقد يكون هذا الخلاف فى رواية خبر واحد نتيجة لازمة لاختلاف الرواة الذين ينقل عنهم ، أو نتيجة لازمة لاختلاف الكتب التى ينظر فيها ويقتبس منها ؛ ولكن كيف يكون التعليل حين يكون راوى الخبر فى الموضعين واحداً ، والكتاب المنقول عنه واحداً كذلك ؟ ...

أظن أنه يحق لى بإزاء مثل ذلك أن أزعم بأن ابن عبد ربه لم يكن ينظر إلى شروط الرواية تلك النظرة المتحرجة التى تفرض على مثله فى هذا المقام أن يلزم جانب الحرص فى المحافظة على نص ما يرويه بحروفه ، وأنه كان يجيز لنفسه أن يتصرف فى رواية بعض الأخبار تصرفاً يؤدى بها معناها دون حروفها ؛ وأحسب ذلك يصلح تعليلاً لانفراد ابن عبد ربه فى بعض ما ورد فى كتابه من نصوص تخالف ما أجمع عليه رواتها فى مختلف كتب الأخبار والنوادر ؛ وأحسبه كذلك سبباً فيما التزمه صاحب العقد ونبه إليه فى مقدمته ، وهو حذف الأسانيد فيما روى من أخباره

فإذا صح ذلك ، كان العقد إلى جانب ما قدمنا من التعريف بمزاياه ، مرجعاً لغوياً يمكن الاستناد إليه فى بحث شىء من

التطورات اللغوية لبعض معانى العربية بين الشرق والغرب

صحيح أن بعض هذا الاختلاف فى رواية بعض الأخبار قد يكون مرجعه رواة الكتاب نفسه وكتبته ونساخه ، ولكن ذلك إذا صح فى قليلها لا يصح فى سائرها ؛ وقد نبهنا فى هامش هذه الطبعة إلى كثير من أنواع هذا الاختلاف ، فليرجع إليها من شاء للنظر والاستدلال

***

بقى أن نسأل : لماذا قصر ابن عبد ربه كتابه على أخبار المشارقة وهو من هو علماً وتحصيلاً ومعرفة بآداب قومه ، وقرطبة هى ما هى فى ذلك العصر الزاهر فى الأدب والعلم والفن والسياسة ؟

تعليل ذلك سهل ميسور لمن يعرف تاريخ ذلك العصر فى قرطبة وبغداد حاضرتى البلاد العربية فى الغرب والشرق

لقد كان فرار عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان إلى الأندلس بعد سقوط الدولة الأموية فى الشرق ، محاولة جريئة لإقامة حكومة أموية فى الغرب بإزاء الحكومة العباسية فى بغداد ؛ ولقد حالف التوفيق عبد الرحمن الداخل فتم له كثير مما أراد ، وأقام عرشاً لبنى أمية فى الأندلس يتوارثه بنوه سيداً عن سيد ، كلهم يحرص على النهوض بدولته إلى المنزلة التى يجعلها تناظر بغداد ؛ فمن ذلك كانت المنافسة بين الدولتين فى الشرق والغرب دائبة لا تنى ، وكانت الوفود لا تفتأ ساعية بين الحاضرتين ، فلا يظهر جديد فى بغداد حتى يكون نبؤه فى قرطبة ، ولا ينجم نجم فى قرطبة حتى يذيع خبره فى بغداد ؛ واتخذت المنافسة بين الدولتين مظهراً علمياً يبدو أثره فيما كان من اهتمام المغاربة بالرحلة إلى الشرق للتزود من معارفه ، وفيما كان من تطلع المشارقة إلى الأندلس ليعرفوا كل جديد من خبره وما أحدث علماؤه وأدباؤه فى مختلف فروع المعرفة

على أن المغاربة مع ما كان فيهم من اعتداد بأنفسهم وعصبية لبلادهم لم يكن منكوراً لديهم أن علم العربية فى الشرق كله ، منه نشأ وفيه نما وربا ؛ فكانت إليه أنظارهم ، وإليه حجهم وقبلتهم ، ولا يتم تمام العالم منهم — عند الرؤساء وعند العامة — إلا أن يكون علمه مشرقياً

وكما نشاهد فى مصر لعهدنا من يتزيد فى الفضل بكثرة ما يروى من علم الأوربيين وما يقص من مشاهداته لديهم وما يروى من أخبارهم — كان هنالك فى ذلك العهد ... ...

... وفى ذلك العهد كان ابن عبد ربه ، وكأنى به وقد رأى المنزلة التى ينزلها علماء المشارقة من نفوس قومه ، والمكان المرموق الذى تحتله مؤلفاتهم وكتبهم ؛ حتى كان شأن ابن قتيبة وكتبه عندهم ما قدمنا — كأنى به وقد رأى ذلك ، فدبر أمراً ، وأحكم خطة ، واتخذ طريقاً ؛ ثم خرج على الناس بكتابه يقول : هأنذا ، وها هم أولاء !

وكان علماء الأندلس يرحلون إلى الشرق ، فرحل الشرق إلى الأندلس فى كتاب ابن عبد ربه ... !

ذلك وجه الرأى فيما أحسب لاقتصار كتاب ابن عبد ربه على أخبار المشارقة إلا قليلاً منه ، لا أرى ذلك وجهاً سواه

ورحل كتاب ابن عبد ربه إلى المشرق تسبقه شهرته ، ووقع فى يد الصاحب بن عباد ، فأقبل عليه مشوقاً ملهوفاً يلتمس فيه علم ما لم يعلم ، فما هو إلا أن نظر فيه حتى طواه وهو يقول أسفاً : « هذه بضاعتنا ردت إلينا ! » ... ثم دار الزمان وجدّت الحوادث فى آثار العرب ، فأخذتهم بالسنين ونقص من الأموال والأنفس والثمرات . وتبعثرت المكتبة العربية فخلت بعد امتلاء ؛ ولكن علم المشارقة ظل محفوظاً بين دفتى كتاب ابن عبد ربه المغربى الأندلسى القرطبى ... !

هذا ، وقد كان كتاب العقد من بعد ، مرجعاً له خطره ومقداره عند كثير من علماء المشارقة ؛ فنقل عنه القلقشندى فى صبح الأعشى ، والنويرى فى نهاية الأرب ، والأبشيهى فى المستطرف ، والبغدادى فى خزانة الأدب ، وابن خلدون فى المقدمة ، وغير هؤلاء كثير ؛ حتى قل أن يخلو كتاب من كتب النوادر بعد إلا كان العقد مرجعه وخزانة علمه . ولو أننى ذهبت أستقصى أسامى الكتب التى سطا أصحابها على العقد فاحتملوا من خزائنه ما أغناهم وذهب بشهرتهم كل مذهب لأعيانى البحث وانقطع بى دون الاستقصاء

محمد سعيد العريان

من أساطير الهند

شاد لهـــا الحب لؤلؤة

[بتصرف عن اج . جى . ولز H. G. Wells.]

للأستاذ إبراهيم العريض

إنى لا أستطيع أن أحكم لنفسى فى الخلاف الناشئ منذ العصور حول هذه القصة . أهى أشد القصص مرارة فى الحب ، أم إنها مثل رائع لخلود الحسن ؟ فالقصة وما دار حولها من نقاش بات فى علم أولئك الذين يدرسون الأدب الفارسى فى العصور الوسطى .

إنها أقصوصة جد قصيرة . وإن كانت شروحها قد شغلت حيزاً كبيراً من أدب ذلك الجيل المنثور ، فحسبها بعضهم خيالا شعريا ، واعتبرها آخرون رمزية ، فكثرت فى مغزاها الأقاويل ؛ وذهب رجال اللاهوت فيها مذاهب شتى ، واهتموا منها فى الأخص بالجانب المتعلق بالبعث بعد الموت ؛ وضرب رجال الأخلاق بها الأمثال ، واتخذوها موضوعا للعبرة . وهناك غيرهم من لا يرى فيها إلا الحقيقة عارية من كل لبوس .

اج . جى . ولز

جلَوْها له فى نقابِ الجمالِ ... عروسًا أتمَّ الصِّبا عامَها
وكانَ قريباً بعهدِ الطفو ... لةِ لمَّا تتــوّج إذْ رامَها
تخلَّت على قلبِه كالشُّعاعِ ... ترى عينُه فيــهِ أحلامَها
سل الزهْرَ عن ضحِـكِها عندَ ما ... تُفتحُ للطــلِّ أكمامَها
سل الطيرَ عن نُطقِها عند ما ... تبثُّ مع الفجْــرِ أنغامَها
وما حكَتا من معانى الفتو ... نِ ما يُلْهِمُ الشِّعْرَ إلهامَها
وما شَرِقَتْ عينُها بالسُّرورِ ... فتنفُضَ من خمْرِه جامَها
إذا خطرتْ شذًّ بينَ القلو ... بِ من لا يُبارِكُ أقدامَها
وكانت يدُ الحكمِ عن أمْرِه ... تُنفذُ فى الخلْقِ أحكامَها
فعاشَ لِإمتاعِها بالوُجودِ ... ونوَّر بالحبِّ أيّامَهـــا

* * *

وعاشتْ وإيّاهُ فى روْضةٍ ... من الحُبِّ أفنانُها دانِيَهْ
إذا عادَ من همِّه بالنها ... رِ ألْفَى لديْها المُنى غافيه
فمِجْمرةُ العودِ فى جانبٍ ... ومِعْزفةُ العودِ فى ناحيه
ومِن حولِ هاتيْنِ شفّت ستائِــرُ عن كلِّ نُمْرُقةٍ غاليه
وقد عقدَ الوردُ حولَ السري ... رِ من مثْلِ ألوانِها حاشيه
فتُسرعُ باسمــةً نحْوه ... وتأخذُ يُمناه كالشاكيه
وتهْوِى به بينَ تلكَ الظّلالِ ... وتبْقى الظّلالُ على ما هِيه
فلا تسْمعُ الأذنُ غيرَ الصّدى ... صدى الرُّوحِ تهفو إلى ثانيه
ولاَ تُبْصِرُ العينُ إلاّ يداً ... تمرُّ برِفقٍ على ناصــيه
إلى أن تذُوبَ الشّفاهُ التى ... تُناغِيهِ فى همْسـةٍ خافيه

* * *

وكانت قِصاراً ليالى الهناءِ ... ولـكنّها ازْدهرتْ كاملَهْ
فلَمْ يشْعُرا بحُدَاءِ الربيعِ ... ولا كيفَ مرّتْ بهِ القافله
وحلَّ الخريفُ لتنْعَى الطيورُ ... إلى الروْضِ أوراقَه الماطله
تبدّلَ فى عيْنِها كلُّ لونٍ ... فيا لكِ مِنْ صُفْرَةٍ قاتلَهْ
فهامتْ فرادَى على وجْهِها ... وكانت تقِــرُّ معًا نازِله
وماذا تُؤمِّلُ بينَ الغصُون ... وقد تركَتْها الصّبا عاطِله
على كلِّ صاوٍ لها رنّةٌ ... تُسائله ، لو وعَى سائلَه
وأمْسى أدِيمُ الثرَى صورةً ... لِما رَسَمتْهُ الخُطا العاجله
ومن بينِ مِنْ شيّعتْها الطيورُ ... إلى عالمٍ لا ترَى ساحلَه
على صِغرِ السِّنِّ بين الحسا ... نِ زهْرةُ آمالِهِ الذّابـــله

* * *

وأدْمَى المُصابُ فؤادَ الأميرِ ... وأفقدَهُ رُشْــدَهُ فى أساهْ
فظلَّ ثلاثاً بلا بُلْغــةٍ ... وقد برِمَتْ نفسُه بالحياه
يلوحُ لنــاظِره طيْفُها ... فيَجْزَعُ من دمْعِه إن محاه
ويضحكُ مِنْ قلبِهِ ساخِرًا ... إذا لم يرِنَّ اسْمُهَا فى صداه
وكم أطْرَقَ الرأسَ حتّى إذا ... أحسَّ بذلكَ جُنّتْ يداه
وكم لبِثتْ عينُهُ فى الظلام ... شاخِصةً لا ترى ما يراه

وتلى على صومه رابعٌ ... وما زال جثمانها فى كراه
فلم يجترئ أحدٌ بعدُ أن ... يوارىَ هيكلها فى ثراه
تمدُّ النساء عليها الحريرَ ... فيحسبْنه قائماً فى صلاه
إلى أن تمثلها فكرةً ... فقرَّر تنفيذها ، فى ضحاه

***

فأصدرَ أمراً إلى شعبه ... دعا فيه باديهمْ والحضَرْ
فما خطرتْ قبله فكرةٌ ... كتلكَ ببالِ جميع البشر
ووافاه مِنْ كلِّ فجٍّ عميقٍ ... بُناةُ الدُّمى والفنونِ الأُخر
وتمَّ له من مُعدّاتهمْ ... وأسبابهم ما اقتضاهُ الأثر
فصبَّ لتابوتها فضةً ... وزخرفَ أطرافَه بالصُّوَر
وقوَّمَ بالعاجِ أركانَه ... وزانَ قوائمَه بالدُّرر
وشادَ على قُدْسِهِ حضْرةً ... بناها من المرمرِ المُحتفَر
وقدَّرَ شُبَّاكها صَنْدلاً ... وجمَّلَ كسوتَه بالطُّرَر
وقامت له شُرْفةٌ فى البنا ... ءِ مقصورةٌ غُلِّفتْ بالسُّتُر
فكانَ يُفارقُها بالعشاء ... ويأتى لزورتها فى السَّحر

***

ومرَّتْ سنونَ على صرحِه ... وما زالَ يعملُ فى شانِهِ
يُحسُّ إلى حُبِّها فى الضُّلو ... عِ كالبحرِ يغشى بطوفانه
فيسْعى ليُعلنَهُ للأنامِ ... ولا يستريحُ بإعلانه
وتلكَ التى أجَّجتْ قلبَهُ ... فأغرتْ حشاه بطغيانه
ففى طَرْفِهِ أبداً حيرةٌ ... إذا جالَ فى حُسْنِ بُنيانه
فكم عاودتْ يدُه بالصلا ... حِ شكلاً يُدِلُّ بإتقانه
وكم أعجبَ الناسَ ما شادَهُ ... وأنكره هو فى آنه
فهدَّم من سقفِه ما استقرَّ ... وبدَّل هيئةَ أركانه
وفى البدْءِ كانتْ له نزْعةٌ ... إلى المُستقلِّ بألوانه
تخفِّفُ حدَّتَها توْقُهُ ... حديثاً لإظهار سُلْطانه

***

مضى فى التطوُّرِ ذاكَ البناء ... ومهَّدَ أوَّلُهُ آخرَهْ
فيأخذ إيوانُه فى اتِّساعٍ ... تحيطُ السوارى به دائره
وتلكَ هىَ النارُ فى صدْرِه ... ولكنها التهبتْ زاهره
ففى كلِّ رُكْنٍ لها آيةٌ ... تُحدِّثُ عن حُسْنها شاعرَه
لقد كانَ يُرْضيهِ منها البهاءُ ... فأصْبحَ لا يرْتضى الباهره
وأكسبَهُ ضربُهُ فى الفنو ... نِ ذوْقاً هدى فِطْرةً طائرَه
ليختارَ من وحْيها ما يَجِلُّ ... ويُهْمِلَ عن عَمْدٍ سائرَه
فكم شُرْفةٍ أثقلَتْها النقو ... شُ ردَّ مُرادَها حاسره
لِتَنْهضَ من فوْقها قُبَّةٌ ... تخالُ السماءَ بها غائره
يغيبُ عن الحسِّ مَنْ زارَها ... ويَشْهَدُ فى ظلِّها الآخره

***

تهلَّلَ بالحُسْنِ وجهُ الضريحِ ... وقامتْ منائرُه باتِّزانْ
تُطِلُّ على أثرِ للخلو ... دِ قامَ على آخرٍ وهْو فان
وكانت تجىءُ إليه الوفود ... تُباركُ شُمْمَتَــهُ بالعيان
فتشدو أدلاؤهمْ بالتى ... على حُسْنها عُقِدَ المهْرجان
وكيفَ قضتْ فى صباها فشادَ ... لها الحُبُّ لؤلؤةً فى الزمان
فتخشعُ أطرافُهم للمكينِ ... وتخفِتُ أصواتُهم فى المكان
وكم شاعرٍ هائمٍ فى الخيالِ ... تمثَّلها فبكى من حنان
وحسناءَ تحبِسُ أنفاسَها ... لعاقبةٍ - مِثْلِها - فى الحسان
وعاشَ الأميرُ على عَهْدِهِ ... يقومُ لها كلَّ يومٍ بشان
ومَنْ حوْلَه مُلْهِماتُ الفنونِ ... ترِفُّ على قلبِهِ بالأمانِ

***

وأمْسى بشيْبتِهِ ذاتَ يومٍ ... تُناديهِ روحُها السارِيَهْ
يرى الوافداتِ إلى قبرِها ... وهُنَّ يزغْرِدْنَ فى عافيه
فيُثْنيه حُسْنُ ما قدْ أتمَّ ... ويذْكرُ ما لم يكنْ ناسيَه
لقد لبسَ الصرْحُ هذا الجلالَ ... بأشرافِ قُبَّتِهِ العاليه
ولم يبْقَ ركنٌ على حَجْمِهِ ... سوى موضعِ التُّرْبةِ الزاكيه
ونظرَتُه ترتمى فى البناء ... فتسْبحُ فى جوِّه صافيه
ولكنها كلَّما راجعتْ ... سواريَهُ ... ساريةً سارِبه



شيء نادر :

الوصول

للأستاذ عزيز أحمد فهمي

كن في مجتمع وانظر إلى الناس من حولك وتفرس فيهم ، فإنك تستطيع بعد شيء من التدرب والتعلم أن تحدد ، ولو بالتقريب ، شخصيات الكثيرين منهم ، فتقول إن هذا الأول شخص جاد مستقيم في عمله مستقيم في لهوه ، فهو يعمل ليعيش ، ويلهو ليعمل ، كأنما هو آلة حكم عليها أن تدور دورتين دورة ذات اليمين ودورة ذات الشمال . فإذا تركته ونظرت إلى الثاني قلت إن هذا الثاني شخص حائر لا يعرف لماذا نوجد في هذه الحياة ولا يعرف أي أعباء الحياة يحمل ولا أيها يدع ، فهو يرمق كل شيء باهتمام ، ولا تعدو رمقته إلى الأشياء هذا الاهتمام ، ولا تجوزه إلى الاختبار والمعرفة ثم الاستغلال . فإذا تركته ونظرت إلى الثالث قلت إن هذا الثالث مغالط اختلس في الدنيا ما كان غيره أحق به منه ، وهو يعرف أنه مختلس ، ويعرف أن المختلس مهدد بالانفضاح ، ولذلك فإنه يعمد إلى تغطية مغالطته الأصلية المجرمة بمغالطات أخرى فرعية هي أيضاً مجرمة . فإذا تركته ونظرت إلى الرابع قلت إن هذا الرابع ضعيف هزيل ولكنه راغب في الحياة ، وفي لون صريح من ألوان الحياة يرضاه ، فهو يتوسل إليه بإهدار كل مواهبه وكل قواه لا يعبأ بأن يكون موضع النقد ، ولا بأن يكون موضع السخرية ، ولا بأن يكون موضع التحقير ما دام يصل إلى الذي يريد من الراحة الرخيصة التي استهوته والتي طمع فيها على غير جدارة منه لها ... فإذا تركته ونظرت إلى الخامس قلت إن هذا الخامس حقود ، فإذا تركته ونظرت إلى السادس قلت إن هذا السادس بخيل ، فإذا تركته ونظرت إلى السابع قلت إن هذا السابع بحاثة ، فإذا تركته ونظرت إلى الثامن قلت إن هذا الثامن فنان ... وهكذا ..

أصابتْ عِثاراً على نُقطَةٍ ... فكرَّتْ على نفسِها ثانيه
فيشْعُر كالشَّوْكِ في صدْرِهِ ... يُوخِزُ من قلْبِهِ دامِيَه
فيَنْهَضُ في قبْضَةٍ مِنْ ذُهُولٍ ... يَجرُّ خُطاهُ بلا واعِيَه

***

وعادَ غداةَ غَدٍ واجماً ... وفي سيرِهِ الْخُطَّةُ التالِيَهْ
وسادَ السكونُ على المُلْهِمِينَ ... كأنهُمُ الجَمْرةُ الخابِيَه
فشاعِرُهم قائمٌ بالوصيدِ ... يُسائِلُ عمّا جرَى راوِيَه
ودارَ بنظْرَتِهِ في المكانِ ... وألْقَى على صحْنِهِ ثانِيه
ورَوَّى طويلاً وقال : ارْفعُوهُ ! ... وأوْمأ للتُّرْبةِ الزّاكيه

(البحرين) إبراهيم العريض

بل إن من الناس من تستطيع بالنظرة الأولى إليه أن تعرف الحرفة التي يحترفها ، فهذا تعرفه معلماً من عنايته بالنظافة والنظام ، ومن حركاته الميكانيكية التي اصطنعها لتكون نموذجاً للتلاميذ يتحركون على نمطها ، ولتكون في الوقت نفسه ستاراً بينه وبين التلاميذ فلا يكشفون مع وجودها حركات نفسه الطبيعية التي فطره عليها الله ، وأنت تعرفه كذلك من صوته وإشاراته وحديثه الذي يتكلف به التفهيم بحسب أصول البيداجوجيا . . .

وذاك تعرفه محامياً من لباقته ورشاقة ضميره التي تبدو في اتساع آفاق أحاديثه ، تلك الأحاديث التي يحرص المحامي البارع كل الحرص على أن تكون كلاماً لا معنى له حتى إذا اختلف مع موكله بعد الحكم الابتدائي استطاع أن يتفق مع خصم موكله ليترافع عنه لدى محكمة الاستئناف . . . وذلك تعرفه سمساراً من سهولة دخوله على الناس وسهولة خروجه من الناس ، فهو يحدث من يشاء بما يشاء إلى أن يشاء قطع الحديث ليحدث آخر بما يشاء أيضاً حتى يرى أن يصل الاثنين وأن ينسحب هو ليصل غيرهما بالحلال أو الحرام ... وآخر تعرفه عسكرياً من سماحة عقله وسماحة نفسه

فهو لا يطمع من الدنيا فى شىء أكثر من الذى يطمع الإنسان فيه إذا كان فى « استراحة » إحدى المحطات : لقمة سائغة ، وشربة هنية ، بعدها جرس القيام ... ثم الصحافى تعرفه صحافياً بقدرته العجيبة على دس نفسه فيما يعرف وفيما لا يعرف ، وبقدرته الأخرى على الاستخفاف بحكم الناس عليه ؛ فهو يقبل عليهم فى النكبة لا ليشاركهم الأسى ولا ليواسيهم ولا ليخفف عنهم وإنما ليراهم كيف يبكون ، وكيف يذرفون الدمع ، وليته مع ذلك يحاول أن يعرف هذا البكاء وهـذا الدمع هل هما صادقان أو هما كاذبان وإنما الذى يعنيه هو تسجيل الوقت الذى بدأ فيه البكاء والوقت الذى انتهى فيه ، وتقدير الدمع الذى ذرف كأنمـا ناس يريدون أن يشربوه أو أن يعوموا فيه ... وهكذا

هذا شىء يحدث ... وأنت تستطيع ـ كغيرك ـ أن تميز الناس بالنظرة الأولى أو بالنظرة الثانية ، فما الذى يحدث للناس حتى يتشكلوا هذا التشكل الذى يحددهم ويحصر شخصياتهم ؟ وهل تحدد الشخصية وانحصارها مما يدل على قوتها ، أو مما يدل على ضعفها ؟

أما الذى يحـدث للناس ، فيكون من أثره أن تتشكل شخصياتهم وأن تتحدد وأن تنحصر وأن تتميز ، فهو أن الواحد منهم يقع تحت تأثير عاطفة من العواطف أو حرفة من الحرف ، ويتركها تعمل فى نفسه . والنفس كما نعلم تعمل فى البدن ، ولكل عاطفة لون من العمل تصطبغ به النفس ويتشكل به البدن . ومهما كان من الخير فى العاطفة الواحدة أو فى الحرفة الواحدة ، فإن تغلبها على الإنسان فيه اختلال لتوازنه النفسى وفيه تشويه لشكل بدنه ، فالله لم يخلق إنساناً بعاطفة واحدة طاغية عليه ، كما أنه لم يخلق إنساناً محترفاً حرفة واحدة تؤثر فيه هذا الأثر الشنيع

وإنما الناس الذين خلقهم الله أطفال ، أصفياء ، عواطفهم موجودة لا حصر لها : فالسعيد منهم هو ذلك الذى إذا نما العقل فيه تمكن به من حفظ التوازن بين هذه العواطف الموجودة الكثيرة فلم يسمح لإحداها بأن تغلبه على أمره ... فإذا استطاع هذا ، فهو ينمو ويكبر ولا يزال وجهه كوجوه الأطفال ، ولا تزال شخصيته كشخصيات الأطفال ، فيها هذا الشيوع السمح الذى لا يستطيع الناظر إليه أو المحقق فيه أن يجزم به فيقول : إن هذا الإنسان حقود ، أو إنه غيور ، أو إنه طماع ، أو إنه محام أو إنه معلم ، أو إنه مهندس ، أو إنه شىء ما ... وإنما يقول هذا إنسان ، فإذا أراد أن يعرف أى إنسان هو كان عليه أن يعاشره وأن يختبره ، فعندئذ تتبين له مواهبه واتجاهاته العقلية والنفسية. ولا بد فى هذه الحال أن تنكشف له ميزات عجيبة ، لأن الإنسان الذى يستطيع — وعلى الخصوص فى هذا العصر — أن ينجو بنفسه من الخضوع لإحدى العواطف أو لمجموعة خاصة منها ، وأن ينجو من آثار الحرفة والمهنة ، لهو إنسان قوى النفس استطاع أن يصل أو أن يعود إلى الأصل الطبيعى لنفسه ، وهو الأصل الذى فطره الله عليه ، وهو أصل خصب صاف غنى فيه كل العواطف ، وكل المواهب ، وكل القوى الخلقية ، وإن تفاوتت مقاديرها عند الناس

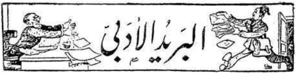
ومن الفنانين الذين استطاعوا أن يصلوا إلى هذا الصفاء : شارلس لاتون ، فأنت تنظر إلى وجهه فترى وجه طفل لا يستطيع اللحم المتراكم فيه أن يحجب صفاءه ولا نقاءه

ونجيب الريحانى يقترب اليوم من الستين ، ومع هذا فمهما تفرست فى وجهه فإنك لا تستطيع — والصلاة على النبى — أن ترى فيه تجعيدة أو خطاً يستر عاطفة حادة أو يشير إلى أن هذا الرجل قد قهره الزمن على أن ينصب فى قالب ما . ولذلك فإنه قدير على أن يمثل كل شخصية من الناس ، وعلى أن يعلم الممثلين كيف يمثلون ما اختلف من الشخصيات

والأستاذ أحمد أمين — على ما أنا متحامل عليه — تراه فلا تعرف أهذا الرجل أديب ، أم هو عالم ، أم هو تاجر ، أم هو من ذوى الأملاك ، أم هو ممن يرزقهم الله يوماً بعد يوم ... ولست أدرى أأتاه ذلك لأنه من أولئك الذين تحدثنا عنهم ، أم لأنه مجموعة من الرجال : فنهم الأديب والعالم والتاجر وذو الأملاك ، والذى يرزقه الله يوماً بعد يوم ، وقد تعادل فيه هؤلاء جميعاً فلم يقو واحد منهم على أن يختص بالظهور فيه

ويشبهه فى ذلك الأستاذ الزيات ... بل إنه يزيد عنه غموضاً فى صوته ، فهو لا يزال إلى اليوم يشبه أصوات الأطفال ...

أما الرجل الجبار فى هذا الوصول فهو الاقتصادى الفنان الكبير طلعت حرب ... فهذا رجل إذا لم تكن تعرفه ورأيته وأقسم لك جمهور من الناس بأنه طلعت حرب لما صدقت ، فهو لا يبدو عليه أنه باشا ، ولا أنه اقتصادى ، ولا أنه صاحب



الجيل

يعضد مقالة الدكتور زكي مبارك في (الجيل) مستدرك التاج « والجيل القرن » « والقرن — كما في النهاية — أهل كل زمان وهو مقدار التوسط في أعمار أهل كل زمان ، وكأنه المقدار الذي يقترن فيه أهل ذلك الزمان في أعمارهم وأحوالهم . وقيل : القرن أربعون سنة ، وقيل : ثمانون ، وقيل : مائة ، وقيل : هو مطلق الزمان »

والجيل في هذه اللزومية :

دين وكفر وأنباء تقص وفرقان (م) ينص وتوراة وإنجيـــل
في كل جيل أباطيل يدان بها فهل تفرد يوماً بالهدى جيل ؟
وما تزال لأهل الفضل منقصة وللأصاغر تعظيم وتبجيل !

الجيل في قول الشيخ قد يراه الدكتور من حججه

حول مسابقة الأدب العربي

في هذا العدد من الرسالة يظهر المقال التاسع ، وفي العدد المقبل إن شاء الله يظهر المقال العاشر في نقد كتاب « المختار » للأستاذ عبد العزيز البشري ، ويرى طلبة السنة التوجيهية أن موعد المسابقة اقترب وأنه صار من المتعذر أن نكتب عن « تحرير المرأة » و « ديوان إسماعيل صبري »

أما كتاب تحرير المرأة فقد نشرت عنه « الرسالة » مقالين لباحثين فاضلين ، فأنارت الطريق أمام الطلاب ، وأما ديوان إسماعيل صبري فمه أربع دراسات لحضرات الأساتذة الأفاضل طه حسين وأحمد أمين وأنطون الجميّل وأحمد الزين ، وفي هذه الدراسات ما يوضّح ملامح هذه الشاعرية أحسن توضيح

لكن بقي جانبٌ من هذه الشاعرية لم يلتفت إليه هؤلاء الباحثون ، وذلك الجانب هو تأثير إسماعيل صبري في الشعر الحديث من الناحية الوصفية ، وأريد بها وصف الآثار المصرية وكنت أحب أن أنشر في « الرسالة » مقالة في خصائص هـذا الجانب من شاعرية صبري ، ولكني لم أجد ما أقوله بعد البحثين اللذين أثبتهما في الطبعة الثانية من كتاب « الموازنة بين الشعراء » وهما يقعان في سبع وعشرين صفحة ، فإن رأى الطلبة أن يرجعوا

مشروعات ، ولا أنه صاحب جهاد ، وإنما هو رجل منكسر ينثني رأسه وهو جالس إلى صدره ذلاً واستغفاراً ، وتتطلع عيناه إلى السماء رجاء واستعطافاً ، ويتهادى صوته في حديثه كأنما يخشى التعثر أو الخطأ ، مع أنه اليوم في السبعين أو نحوها ، ومع أنه الرجل الأول في مصر

السنون مرت به ولكنها لم تفعل به شيئاً ، والصعاب صدمته ولكنها لم تحفر في نفسه مجرى ، وإنما كان يقبل في السنين الماضيات جميعاً على اليوم بعد اليوم ، أو على الساعة بعد الساعة يبحث عن موضع الحق أين هو فيلصق به ، والصعاب كانت تصدمه فكان يردها بدرع الحق أيضاً فلم تكن لتؤثر فيه ، ولذلك استطاع أن يبقى إلى اليوم كأنه طفل كبر جسمه ولكن نفسه ما تزال صافية مرتاحة

وإذا كان الوصول إلى هذا الصفاء لازماً للناس جميعاً ، لأنه أهم أسباب الراحة والاطمئنان ، فهو ألزم ما يكون لأهل الفن ما دام تعبيراً من حياة الروح عند صاحبه وعند غيره من الناس ، فهذا الصفاء يمكن الفنان من الاطلاع على حقيقة نفسه كلما اعتراها طارئٌ من طوارئ الحياة ، فيلحظ بهذا الاطلاع ما ينتاب النفس الطبيعية عند هـذا الطارئ بالذات ؛ فإذا ضمن صفاء نفسه واستقامتها فقد ضمن بها مقياساً لا يخطئ يمكنه من الحكم على سائر النفوس وهي تحت تأثير الطوارئ المختلفة ، فإذا لحظ بعد ذلك كيف تعبر نفسه عما تفعله بهـا الطوارئ ، وكيف تنزع إلى الاستغراق في هذا الطارئ أو التنصل من ذاك الطارئ ، استطاع بعد ذلك أن يقيس نفوس الناس على نفسه الصافية فإذا وجد اختلافاً بحث عن علته وسببه عندهم ...

وهذه موضوعات للأدب ، وللموسيقى ، وللتمثيل ، وللغناء ، وللرسم ، وللرقص ...

إنها حياة النفس وما الفن إلا تصوير هذه الحياة ، وما الوصول إلى الفن الصادق إلا من هذه الطريق ...

كان الله في عون الفنان إذا أراد أن يكون صادقاً ...

عزيز أحمد فهمي

إلى هذين البحثين فى كتاب الموازنة بين الشعراء فسيكون لذلك بعض النفع ، لأنهم سيرون ملامح لم يروها فى تلك الدراسات ، وقد يكون فيما فصلنا من الموازنة بين صبري ومطران مما لم يلتفت إليها الطلبة من قبل

وأنا أرجو أن يكتب الله التوفيق لجميع المتسابقين ، وأنتظر بعون الله ورعايته أن يكون إجابات المتسابقين شاهداً على اهتمام الشبان فى مصر بمسايرة الأدب الحديث والله عز شأنه هو الموفق

زكى مبارك

الرواية الإسلامية فى عدد أصحاب الكهف

ذكر الأستاذ الجليل زكى مبارك فى العدد (٣٩١) من مجلة الرسالة الغراء أنه بمراجعة التفاسير فى قوله تعالى : (سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم ، ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجماً بالغيب ، ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم ، قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) يعرف أن أصحاب القول الأول هم اليهود ، وأصحاب القول الثانى هم النصارى ، وأصحاب القول الثالث هم المسلمون ، وقد جعل الرواية الإسلامية أن عددهم ثمانية بإضافة كلبهم إليهم

ولعل صديق الأستاذ زكى مبارك يقصد الرواية الإسلامية المشهورة ، فلا تكون هذه الرواية فى الإسلام ضربة لازب وإن اشتهرت بين المسلمين ، فكم من أمور اشتهرت بيننا معشر المسلمين وليست فى شىء من ديننا . والحقيقة أن ظاهر القرآن الكريم على أن هذه الأقوال الثلاثة لأهل الكتاب خاصة ، فهم الذين قالوا مرة إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم ، وقالوا مرة إنهم خمسة سادسهم كلبهم ، وقالوا مرة إنهم سبعة وثامنهم كلبهم ، وقد أمر الله تعالى نبيه عليه السلام أن يرد عليهم أقوالهم المختلفة بقوله : (قل ربى أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل) ثم أمره بعد هذا ألا يمارى فيهم إلا مراء ظاهراً ، واختيار أحد هذه الأقوال وحمله على القرآن والإسلام ليس من المراء الظاهر فى شىء ، والحكمة ظاهرة فى ترك ذلك المراء ، لأن الإسلام لا يعنى بعدد أصحاب الكهف ولا غيره من شأنهم ، وليس من شأنه أن يدخل فى جدال مع أهل الكتاب فى تلك التفاصيل ، وإنما يسوق قصة أهل الكهف للعبرة والعظة ، شأنه فى كل ما قصه علينا فى القرآن الكريم ، والعناية بتلك التفاصيل من شأن علم التاريخ لا من شأن الكتب السماوية .

وقد تمسك الذين رجحوا أن يكون عدد أصحاب الكهف ثمانية من علمائنا بهذه الواو التى وردت فى قوله تعالى : (وثامنهم كلبهم إذ لم يقل قبلها ورابعهم وسادسهم ، ولكن هذه الواو إذا دلت على مثل هذا فإنما تدل عليه فى قول الذين حكى الله تعالى هذا القول عنهم ، ولا تدل على ترجيح الله تعالى لهذا القول على القولين قبله

وإذن يكون الراجح عندنا فى عدد أصحاب الكهف أنه مما استأثر الله بعلمه مع القليل الذى ذكره فى كتابه ، وليكن بعد هذا عددهم أربعة أو ستة أو ثمانية ، فكل هذا من الرجم بالغيب . ولا يهمنا فى ديننا بشىء ، ولو كان المسلمون كلهم يعرفون عددهم وأنه ثمانية ما قال الله تعالى فى عددهم (ما يعلمهم إلا قليل)

عبد المتعال الصعيدى

فى ديوان اسماعيل صبرى باشا

قرأت ديوان اسماعيل صبرى باشا الذى صححه وضبطه وشرحه ورتبه الصديق الشاعر الأستاذ أحمد الزين والذى قامت بنشره لجنة التأليف والترجمة والنشر سنة ١٩٣٨ م فلفتَ انتباهى خطأ وقع فيه الأستاذ الزين رأيت أن يصححه كل من اقتنى الديوان . ففى صفحة ١٨٦ قصيدة عنوانها « الحرب الإيطالية فى طرابلس أيضاً » أولها :

يا بنتَ رُومَا لا تكونى كَأَ كانَتْ أَثِينا بَيْنَ قِيلٍ وقالِ

وهذه القصيدة مُشكَّلة كل أبياتها بكسر اللام فى القافية وهذا خطل تصويبه تسكين اللام كى يصير وزن القصيدة :

مُستفعلن مستفعِلُنْ فاعلنْ مُستفعلنْ مُستفعلنْ فاعلانْ

فليس من الجائز أن نقول :

مُستفعلنْ مُستفعلنْ فاعلنْ مُستفعلن مُستفعلن فاعلانِ

والخطأ فى القول الثانى هو كسر النون فى « فاعلانِ » وصحته تسكين اللام بقول « فاعلانْ »

عبد الرحمن الحمبى

قصيدة كبلنج

قرأت في العدد (٣٨٩) من الرسالة الغراء ترجمة الأستاذ عبد الواحد الخطيب لقصيدة كبلنج الخالدة (إذا ...) فوقفت عند السطر الثاني والثالث منها عند ما لاحظت اضطراباً في المعنى فقد جاء في ترجمة الأستاذ ما نصه (وكان في إمكانك أن تثق بنفسك حينما يشك فيك بعد أن تعرف رأيهم ووجهتهم التي يعيبونك فيها) فالضمير في رأيهم يعود على فاعل يشك التي بناها الأستاذ لصيغة المجهول ، وكان الصواب أن يذكر فاعلها وهو (الناس) كما ورد في الأصل الإنجليزي

هذا وإننا نشكر للرسالة الغراء فتحها المجال لأبناء العربية ممن قدّر لهم الوقوف على الأدب الإنجليزي الزاخر ليطالعونا على عيونه وفرائده .

(عكا . فلسطين) عرفات الطاهر

ميكرسكوب كهربائي يكبر ٢٥ ألف مرة

من أخبار أمريكا الأخيرة أن أحد المصانع الكبرى بها R. C. A. وهو مصنع للراديو قد تمكن من إخراج ميكرسكوب يستعين بالقوة الكهربائية لإعطاء نظر قوته ٢٥ ألف مرة . وهذا الميكرسكوب قد وضع تصميمه العالم الدكتور فلاديمير زوركين Vladimir K. Zworykin ، العالم في علم الرؤيا اللاسلكية (تلفزيون) ، وتمكن المصنع من صنعه بمعونة نفر من أقطاب صناعة العدسات وعلى رأسهم الدكتور لادسلوس ماركون أشهر إخصائي في صنع الميكرسكوبات

ولا شك أن هذا المجهر يفتح مجالاً كبيراً للعلماء في شتى الأبحاث التي ظلت خفية أو مجهولة ، بل وفي شتى الصناعات الكيميائية التي تعتمد على الكيمياء الصناعية كما هو الحال في الراديو ، وقد يفسر هذا إقدام هذه الشركة على تمويل المشروع

ومن البديهي أن استخدام هذا المجهر في علم البيولوجيا سيعود بأعظم النفع على الإنسانية إذ سيكشف عن جزئيات الميكروبات ، كما أنه سيكون ذا فائدة كبيرة في دراسة علم المعادن العضوية Organic وغير العضوية Inorganic التي لا يمكن رؤيتها بالمجاهر العادية

ومن قوة هذا المجهر أنه يستطاع به رؤية الميكروبات الدقيقة التي لا يمكن رؤيتها بالضوء العادي ، فلقد استعمل المصنع ضوءاً قوته من ٣٠ ألف — ١٠٠ ألف فولت حتى استطاعوا أن يشاهدوا به الموجات الضوئية الدقيقة

وهذا المجهر مزود بآلة فوتوغرافية غاية في الدقة تستطيع أن تصور التطورات المختلفة التي تمر تحت عدساته . وحسب القارئ في الدلالة على دقتها أن يعرف أن في استطاعتها تصوير جزء من مليون من السنتيمتر . وشريطها رقيق جداً بدرجة حساسة وهو مصنوع من مادة النتركيلولوس

وعدسات هذا المجهر ثلاث : الأولى تحمل الشاهدة حوالي مائة مرة ، والثانية تصلها إلى ٢٥٠ مرة ، والثالثة تضاعفها إلى ٢٥ ألف مرة ؛ وجميع هذه المكثفات واقعة تحت تأثير منبع كهربائي قوته كما قلنا أقلها ٣٠ ألف فولت وآخرها ١٠٠ ألف فولت ، وفي أسفل هذه العدسات الآلة الفوتوغرافية الدقيقة ...

وأرجو أن أستطيع في فرصة أخرى توضيح هذا الشرح بصور لهذا المجهر العجيب

مصطفى مشعل

سفساف لا سفاسف

جاء في كلمة الدكتور عبد الوهاب عزام عدد (٣٨٨) هذه الجملة :

« ويعلو عن (سفاسفه) » . فقد ند قلم الدكتور السيال عن هذه اللفظة ، فاستعملها بمعنى الرديء ، والذي ورد في كتب اللغة « سَفْساف » ولم يرد إلا « سُفاسِف » بالضم بمعنى شديد جاء في القاموس مادة (سفف) ، « وجوعٌ سُفاسِف بالضم شديد ، والسفساف الرديء من كل شيء والأمر الحقير ، وسفسف عمله لم يبالغ في إحكامه » وفي لسان العرب السفساف الأمر الحقير وأورد شاهداً ما جاء في الحديث : « إن الله سبحانه وتعالى يحب معالي الأمور ويكره سفسافها » وأنكر سفاسفه قال : « وفي حديث فاطمة بنت قيس إني أخاف عليك سفاسفه

قال ابن الأثير هكذا أخرجه أبو موسى فى السين والفاء ولم يفسره وقال : ذكره المكبرى بالفاء والقاف ولم يورده أيضاً فى السين والقاف قال : والمشهور المحفوظ فى حديث فاطمة هو : إنما هو إنى أخاف عليك قسقاسته وهى العصا قال : فأما سفاسفه وسقاسقه فلا أعرفه إلا أن يكون من قولهم لطرائق السيف سفاسقه وهى التى يقال لها « الفرند » فارسية معربة

وأستفهم من حضرة الدكتور الأديب : هل هناك فرق بين الصبر الجميل والصبر . فقد جاء فى القرآن الكريم حكاية عن سيدنا يعقوب « فصبر جميل » وأمر الله سبحانه وتعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بقوله : فاصبر صبراً جميلاً ، وبقوله : فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، فهذا دليل على أن هناك أنواعاً للصبر بينها فروق . أرجو الإجابة على هذا مع جميل الثناء

(القاهرة) محمد السيد غزى

إلى الدكتور عبد الوهاب عزام

إنك وحدك ـ فيما أعلم ـ الذى تستطيع بلسانك الفارسى أن تسلك القلم العربى المبين فى هذه الناحيـة التى عنت لى فى دراسة الأدب العباسى . تلك الناحية هى تأثير اللغة العربية فى اللغة الفارسية تأثيراً شاملاً لا ريب فيه ، وتلك الثغرة أتقدم إلى فتحها فى البحث الأدبى إذ المستفيض فى كتابات الناس على كثرتها وتنوعها أنها لم تتعد الحديث عن تأثير الفارسـية فى العربيـة تأثيراً عاماً فى الألفاظ والأساليب والأخيـلة والمعانى وكل ما يضرب فى هذه السبل ، ويذهبون فى العوامل التى أدت إلى ذلك كل مذهب ، وليس يعنينا هنا أن نقول إن العربيـة اقتحمت على الفارسية معاقلها أو كادت تمحوها حيناً من الحين،

أو أن نتاج المعقول الفارسية الراجحة إنما هو بالعربية ، إذ كان شعر الشاعر منهم بالعربية كبشار ، وأدب الأديب منهم بالعربية كابن المقفع ، وتأليف المؤلف منهم بالعربية كابن قتيبة والطبرى ، نعم هذا حسن ولكنى أعتقد أن هناك شيئاً وراء ذلك كله وهذا الشيء لم يعرض له أحد من الباحثين فيما قرأت من تواريخ اللغة والأدب . وهل رأينا أحداً ألف كتاباً أو بحث بحثاً فى تأثير اللغة العربية فى الفارسية وآدابها . لا نقول إن هذا لون فى البحث لا يعرض له الإمؤرخ الفارسية وأدبها ، فالباحث الحديث لا يقف قلمه عند النظرة البدائية أو نظرة الطائر كما يقولون . والمهم هنا هو أن أنص بقوة على أن اللغة الفارسية لا بد أنهـا تأثرت تأثيراً عميقاً باللغة العربية فى الألفاظ والأساليب والأخيلة والمعانى والأفكار ، إذ المعلوم أن سريان مثل هذه التأثيرات شيء معنوى لا يمكن أن تضع يدك عليه وتقول إنه وصل إلى هنا وابتدأ من هناك ، أو تستطيع أن تقف تياره عند حد معين ، فذلك بالماديات أليق ، وإذا كان كذلك فإنى أتقدم إلى الدكتور الفاضل عبد الوهاب عزام راجياً أن يسلك القلم فى هذا الموضوع الخطير وله فى العربية العرفان بالجميل ، وهذه إشارة عجلان لماما محفى بالجواب من العالم الوقور .

أحمد عبد الرحمن عيسى



الحب والســـحر

للأســـتاذ نجيب محفوظ

انتهى من فرش شقته – أو حجرته إن أردت الدقة – لأنها كانت مكونة من حجرة متوسطة الحجم وردهة صغيرة ، وكان الأثاث فى غاية البساطة كذلك لا يعدو الفراش الخشبى الصغير وخواناً يستعمل مائدة للطعام ومكتباً للمذاكرة وكرسياً وصندوقاً لحفظ الملابس والكتب ومسطرة مدرسة الصنائع المعروفة بطولها .

وهذه الشقة هى الطابق الأول لمنزل صغير مكون من طابقين متماثلين بحارة دعبس بالوايلية . هداه إليه أهل الخير ، فوجده صالحاً لتلميذ مثله بمدرسة الصنائع ومن أسرة ريفية متوسطة الحال بقليوب ، واكترى الشقة بخمسين قرشاً بعد أن رفضت صاحبة البيت تخفيض مليم من أجرتها ...

واستقبل الحياة فى البيت الجديد بنفس راضية ، وعلم أن صاحبته تدعى « أم فردوس » ، وأنها أرملة أسطى عربجى كارو ولكنها تعيش الآن من أجرة شقته وما تربحه من بيع مواد السمنة : كالفتقة والمفات وبعض التركيبات الأخرى ؛ ثم هدايا الأسر التى تعمل بها : « كبلانة » أو « خاطبة » . وكانت امرأة قصيرة بدينة قوية البنية ، تصبغ شعرها بالحناء ، وتملأ ساعديها بالأساور الذهبية ؛ وكانت قسماتها مقبولة ، ولكن صوتها خشن جهورى ، والسب أهون ما يقذف به مما جعلها مرهوبة الجانب فى الحى كله . وتساءل منذ اليوم الأول لإقامته فى البيت : ترى هل لأم فردوس بنت تدعى فردوس حقاً ؟ ... وأين هى ؟ هل تقيم معها فى البيت أم أنها فى بيت زوجها ؟ ... وربما كان الباعث على السؤال حب الاستطلاع ليس إلا ، وعلى أية حال جاءه الجواب سريعاً ، ففى صباح أحد الأيام ، وكان يهم بمغادرة شقته إلى المدرسة سمع وقع أقدام خفيفة فصوب بصره إلى أعلى السلم فرأى فتاة فى السادسة عشرة مرتدية مريلة المدرسة الزرقاء تهبط فى تؤدة حاملة حقيبتها ، فانتظر حيث هو موسعاً لها الطريق ، وقد التقى بصره ببصرها وهى تعاينه بعين يعلوها الارتباك ، ولما حاذته خال أنه سمعها تحييه بصوت خافت قائلة « صباح الخير » فقال لها بلهجته الريفية القحة « صباح الخير » ... ثم تبعها على مهل حتى خلصا إلى الطريق ، ولم تلتفت الفتاة إلى الوراء ، ووضعت حقيبتها على خاصرتها وأحاطتها بذراعها ومضت ... ترى هل تكون الفتاة فردوس بنت أم فردوس ؟ ... رجح ذلك مستدلاً بتحيتها له ، وعلى أية حال كانت الفتاة خمرية اللون ، سوداء العينين والشعر ، ناهدة الثديين ... فبدت لعينيه الريفيتين آية من الحسن ، وكان يتمثل فردوس من قبل كأمها : غليظة ، تسعى فى الأسواق ملتفة بالملاءة اللف ، فإذا به يجدها تلميذة لطيفة تسر الناظرين ... فجرت ابتسامة على شفتيه الغليظتين ، وولول قائلاً بلهجته الريفية : « وى وى ياوى » ... ولذ له أن يعيش فى بيت واحد مع هذه الفتاة الجميلة ، ولكنه كان قليلاً ما يسعد برؤيتها بخلاف أمها التى كانت تقوم بتنظيف شقته ، وتجالسه فى أوقات الفراغ ، وتحدثه – بمناسبة وبغير مناسبة – عن شئون مختلفة وعن أناس كثيرين من الجيران ، وقد ساق الحديث يوماً إلى ناحيته فسألته عن أسرته ومستقبله وصارحها الشاب بأنه من أسرة سيدهم !... وإنه يملك فدانين وعدداً من القراريط وجاموسة ، وأنه التحق بمدرسة الصنائع بعد أن قضى ثلاث سنوات بالمدرسة الثانوية وقال لها فى شىء من المباهاة أنه سيكون يوماً ما مهندساً وأصغت المرأة إليه باهتمام وانتباه وكانت تتمثل الفدانين والجاموسة والمهندس الشاب وتختلس منه نظرات عميقة تدل على الحذر والدهاء ... ثم دعت له دعاء طيباً بصوتها الأجش ...

وسارت الحياة على وتيرة واحدة ولم يكن يغير من رتابتها إلا سفره كل أول خميس من الشهر إلى قليوب حيث يبيت ليلته ويعود مساء الجمعة حاملاً معه بيضاً وفطيراً وزبدة يهدى إلى أم فردوس منها نصيباً معلوماً ...

وفى يوم من الأيام وكانت المرأة تجالسه خاطبته برجاء قائلة :

– والنبى ياسى حماد تفهم فردوس الحساب لأنها ضعيفة فيه

وابتهج الشاب بالدعوة أيما ابتهاج . ولم يكن الأمر سهلاً كما يبدو لأنه كان نفسه ضعيفاً فى الحساب وكان بينه وبينه ثأر قديم منذ اليوم الذى اضطره فيه إلى اليأس من الاستمرار فى المدرسة الثانوية وإجباره على اختيار مدرسة الصنائع بدل المدرسة الحربية التى كان على استعداد لأن يجود فى سبيل الالتحاق بها

يبيع الفدادين والجاموسة . ولكنه قبل الدعوة دون تردد وصعد إلى شقة أم فردوس ، ووجد الفتاة وكأنها فى انتظاره وكانت ترتدى فستاناً أنيقاً ، وترسل شعرها الأسود فى ضفيرة طويلة جاوزت ردفيها . فقامت لتحيته وجلسا تفصل بينهما مائدة وضعت عليها كراسة الحساب ، وقالت لها أمها : إن « حماد افندى قبل أن يدرس لها الحساب » وجلست معهما برهة ثم خرجت إلى الردهة لأعمالها التى لا تنتهى ، وكان الدرس شاقاً على المعلم والتلميذة على السواء ، ولكنه لم يرض بالهزيمة وإفلات الفرصة السعيدة من بين يديه فشرح لها الدرس على قدر فهمه . وكان إذا غلبه الارتباك نظر إليها وسألها قائلاً : « فاهمة ؟ » فتهز رأسها بالإيجاب سواء أكانت فاهمة أم غير فاهمة . ووجد حامد فى هذه الدروس فرصة جميلة للاجتماع بفردوس ، وكان يجذبه إليها ما يجذب فتى مثله فى فورة الشباب إلى فتاة فى نضوجها وحسنها انطوى عليهما بيت واحد ، وربما كانا معاً يكابدان هذا الشعور الطبيعى ولكنهما لم يتقدما فى علاقتهما عن أول يوم التقيا فيه لأن الشاب كان ريفياً « خاماً » وكان يقنع بأن يقول لها صباح الخير أومساء الخير وهو يحدجها بنظرة ذات معنى كأنها تتوسل إليها أن تفهم ، أو أن يضغط على يدها إذا مدتها إليه بالسلام . وكان كثير الحذر فى التعبير عن شعوره خشية أن تتنبه إليهما أم فردوس لأنه كان يتوهم أنها لم تتنبه إليهما بعد ...

واطردت الأيام وهو جد سعيد بحياته ، حتى كان صباح جمعة ، وكان من عادته أن يمضى صباح الجمعة خارج البيت إلى ما بعد الصلاة ؛ وكان يقطع حارة دسوق فى طريقه إلى شارع الملك فالتقى بأم بخاطرها الغسالة وهى ملتفة فى ملاءتها القذرة كغرارة الفحم ، وكانت تغسل له ثيابه ثم انقطعت على أثر شجار قام بينها وبين أم فردوس تبودل فيه القذف والسب وشد الشعر والبصق وحركات أخرى غاية فى الغرابة ، فأقبلت المرأة عليه وحيته وقالت :

— يا سي حماد أنا أرغب فى مقابلتك منذ زمن طويل فالحمد لله الذى أراد بك كل خير ... تعال أحدثك حديثاً يهمك ...

وانتبذت به مكاناً خالياً من الحارة ثم استدركت تقول :

— أنت شاب طيب القلب لا تدرى من أمور الدنيا شيئاً فاحذر هذه المرأة ... أم فردوس داهية شريرة تجد منذ زمن طويل فى الإيقاع بك ...

فبوغت الشاب بهذا القول وأخذه العجب وسألها فى ارتباك ظاهر : « أى إيقاع بى تعنين ! »

فقالت المرأة وهى تخافت من صوتها :

— إبنتها ؟ ... ألا تفهم ؟ ... إبنة العربجى ... فردوس التى تسير فى الطريق عارضة ردفيها وساقيها لكل من رأى ، فلا هى من مقامك ولا من مقام أسرتك وأنت الحسيب النسيب مالك الفدادين ... فاحذر ثم احذر ، إنها تحتال عليك مستعينة بالشياطين ..

وسكتت المرأة ريثما تستريح وجعلت تلحظ الشاب وتقرأ الدهشة المرتسمة على وجهه بارتياح ثم أدنت رأسها من رأسه غير مشفقة عليه من رائحة رأسها ونكهة فمها واستطردت تقول :

— لقد أخذت منديلك خفية وأعطته للشيخة زهية وأعطت قميصك للشيخ لبيب وأنت لا تدرى شيئاً والسحر فى فدله ، والبخور فى عمله ، وأرواح الشياطين تطوف ليل نهار

فتبدى الخوف على وجه الشاب وعبس وجهه ... ولم يكن خالى الذهن من هذه الأمور ، ولا كان ممن يستهينون بها فساوره القلق وتساءل متجاهلاً عواطفه ، ظهراً عدم اكتراث

— وما عسى أن يعنى هذا ؟

فضربت المرأة صدرها بيدها وقالت :

— هذا يعنى كل شىء يا مسكين ؛ هذا الذى أوقع المرحوم الأسطى شلبى من قبل . واعلم أنها دخلت فى العميق ، وحصلت على حجاب رهيب دسته تحت حشية سريرك ، وحفظت ابنتها كلاماً سحرياً مخيفاً تتلوه صباح كل جمعة على فراشك وهى تثابر على ذلك أسبوعاً بعد أسبوع ، فأفسد عليها عملها الشيطانى ، وانج بنفسك ... والآن وقد حذرتك ، فإنى تاركتك لحكمتك والله يلهمك الصواب ...

وسارت المرأة فى سبيلها ، ولبث هو فى مكانه لا يريم عنه متفكراً قلقاً يعجب لتلك الأمور الجليلة التى تدور من حوله وهو عنها غافل ... رباه ! أسحر وبخور وشياطين ؟ ! ... أكل هذا ليتزوج من فردوس ؟ وكان بغير شك قلقاً خائفاً ولكنه أحس لذة خفية وفخاراً ، ثم تساءل : هل يستمر فى طريقه أم يعود إلى البيت ليرى بنفسه ما يحدث فى غرفته ؟ وولى وجهه شطر حارة دعبس دون تردد فبلغ البيت بعد زمن قصير وكانت النوافذ مغلقة والباب مواربا كعادته فدخل بهدوء لا يحدث صوتاً ورأى باب شقته مغلقاً ، ترى هل هو مغلق بالمفتاح ؟ وهل فردوس حقاً بالداخل ؟ ثم صعد بصره إلى أعلى السلم وأدار الأكرة بخفة ودفع الباب

في حذر فانفتح ، تخفق قلبه وقال لنفسه إن أم فردوس لا تترك الباب هكذا إذا لم يكن أحد بالداخل ، ثم دخل ورد الباب بهدوء ، وهنا اقتحمت أنفه رائحة بخور جميلة مخدرة فانتفض رعباً وتمتم بصوت غير مسموع قائلاً : « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم بسم الله الرحمن الرحيم » ولكن شغفه تغلب على خوفه فتقدم بخفة كأنه يسير على حبل في ملعب ووضع أذنه على باب الحجرة فلم يسمع حركة ولا نأمة فانحنى حتى استطاع أن ينظر إلى الداخل من خصاص الباب فرأى دخان البخور تتصاعد سحائبه في هدوء إلى سماء الغرفة ، واستطاع أن يرى سريره بوضوح ... رباه ... لم يكن خالياً ... كانت فردوس تتربع عليه في ثوب أبيض ناصع البياض متلفعة بخمار أبيض كذلك كأنها على وشك صلاة ، ورآها تضع على كفها رسالة مطوية تستغرق في النظر إليها وتحرك شفتيها حركة منظمة كأنها تتلو آية ؛ ولبث ينظر إليها في سكون ودهشة ، وكان يجد قلقاً غريباً ، ولكنه لم يشعر بغضب أو سخط بل جعل يراقبها أخيراً في شغف ثم رآها تثنى حافة المرتبة وتضع ما بين يديها تحتها ، ثم رآها تتمدد على ظهرها في هدوء وهي تظن أنها بمأمن من الرقباء وتسحب الوسادة وتضمها عليها بالطول ، ثم احتضنتها بيديها وكأنما راحت في سبات عميق ، وراقبها بعينين دهشتين وراح يتساءل أكل هذا حقاً من أجلي أنا ؟ ! ... أكل هذا لكي تتزوج مني أنا ... واطمأن إلى المنظر الغريب ووجد في مراقبته لذة لا تماد لها لذة ؛ وأحس تخديراً ود لو لم يصح منه أبداً . وتدفق الحنان من حناياه فتمنّى لو يحتويها في تلك اللحظة بين يديه ...

ثم رآها تزيح الوسادة عنها وتعيدها إلى مكانها وتعتدل جالسة ثم تهبط إلى الأرض وتميل إلى المبخرة لترفعها فتوقع أن تمضي بعد ذلك إلى الباب وانتبه إلى حاله ، فسارع إلى الباب وفتحه وأغلقه بقوة متعمداً أن يحدث صوتاً مسموعاً واتجه نحو غرفته وهو يصفر صفيراً عالياً فانفتح باب غرفته وبرزت الفتاة وقد علا وجهها شحوب وارتباك وقالت باضطراب :

— عدت مبكراً ... أنا كنت أنظم حجرتك وأبخر الشقة

واتجهت نحو الباب مهرولة فاعترض سبيلها ، وكانت عواطفه المضطربة تشجعه على الاستهانة فقال برقة :

— شكراً ، لقد عدت لأني أحسست بتعب ، وإني لآسف على إزعاجي لك ... استريحي ، ولكنها قالت بسرعة ولم تكن أفاقت بعد من ارتباكها

— دعني أخرج وإلا استبطأتني أمي

فقال لها برجاء وهو يشير إلى الكرسي :

— استريحي قليلاً ... أرجو أن تمكثي مني هنيهة فإن لدي ما أقوله لك ...

وكانت عواطفه ثائرة فدفعها برقة نحو الكرسي حتى جلست كارهة ، ثم قال لها بصوت متهدج :

— فردوس ! هذه فرصة سعيدة لأنفرد بك وأقول لك ...

وأعياه القول فسكت ؛ ولكنه كان يشعر بأنه ينبغي أن يقول شيئاً وإلا لم يجد عذراً ينتحله لإبقائها . فقال بصوته المضطرب :

— أنت جميلة في الثوب الأبيض ... أعني أنك فيه أجمل منك في أي ثوب آخر ... الواقع أنك جميلة دائماً وفي أي ثوب كان ...

فاشتد الارتباك بالفتاة وتضرج وجهها بالاحمرار فازدادت فتنة وازداد افتتاناً . فلم يملك أن قال لها :

— فردوس ... أنا ... أنا أحبك ... وقد أبقيتك هنا لأقول لك إني ... أريد أن أتزوج منك

لم تستطع الفتاة البقاء فقامت واقفة واتجهت نحو الباب ولكنه اعترض سبيلها مرة أخرى وقال لها :

— هل أنت غاضبة ؟ ... صدقيني يا فردوس سأتزوج منك

ونظر إلى وجهها بعين فاحصة فلم ير غضباً ولكنه أحس ارتباكها وتعثرها بالخجل فأوسع لها ، ولما حاذته هوى بفمه فقبل خدها ، ولم تقل له شيئاً ، وسارت حتى غيبها الباب ، ودخل الشاب إلى حجرته ، وجلس على حافة سريره كعادته ؛ ثم دس يده تحت الحشية حتى عثرت بالحجاب ، فوضعه على كفه يديم إليه النظر في سكون وتهيب ، ولم يجسر على فك رباطه فأعاده إلى مكانه ، وتفكر ملياً ثم قال وهو يبتسم : « من يستطيع أن يقول بعد اليوم أن السحر خرافة ؟ ! »

أما فردوس فصعدت السلم مسرعة تقفز كل درجتين معاً ، ولم تكن أمها في الشقة ، فجرت إلى الغرفة يكاد يصرعها الفرح وجعلت تروح وتجيء وهي تقول باضطراب : « يا بركتك يا شيخة زهية ... يا بركتك يا شيخة زهية ... ! »

نجيب محفوظ

(طبعت بمطبعة الرسالة بشارع السلطان حسين — عابدين)